روايات من الخيال العلمي

٥

الزمن الصعب

د. طالب عمران

دار الفكر
دار الفكر المعاصر

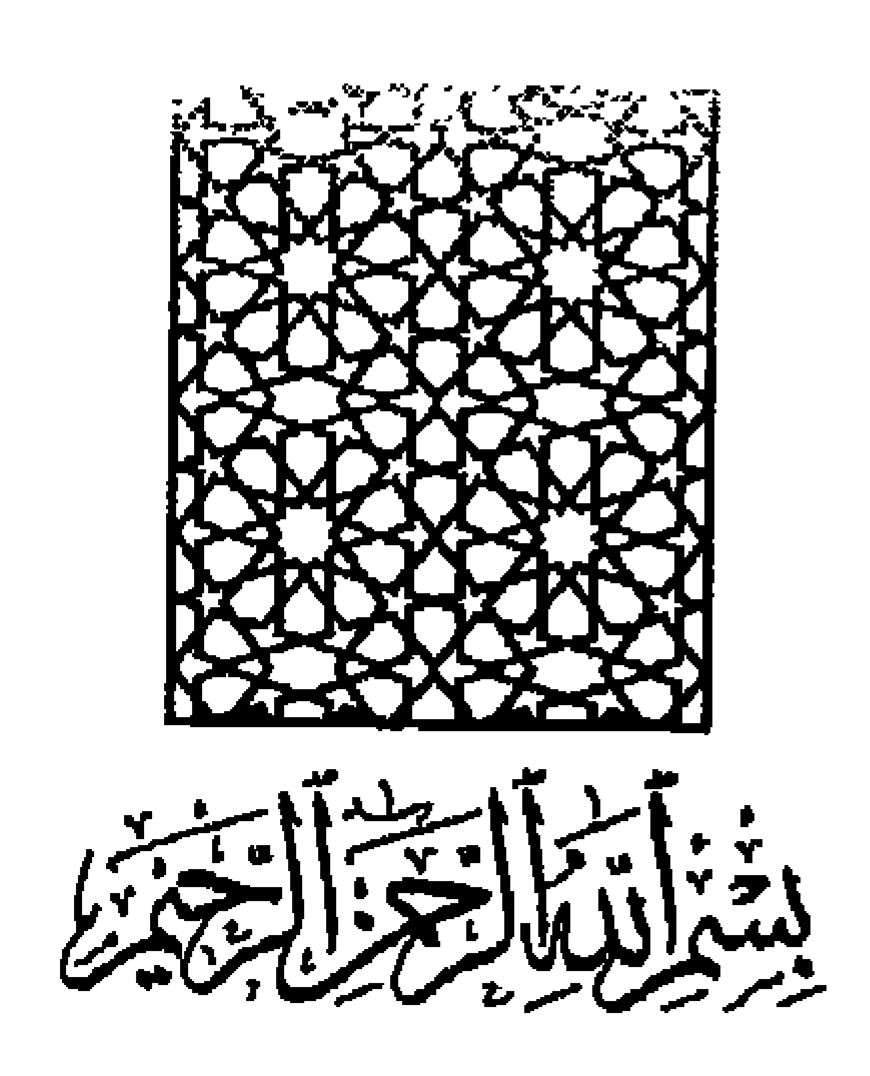
طالب عمران

من مواليد دمشق ١٩٤٨

- دكتوراة في المنطويات التفاضلية والفلك.
- أستاذ في كلية الهندسة المدنية - جامعة دمشق.
- عضو في كل من:
- جمعية تاريخ العلوم عند العرب.
- مركز الدراسات الفلكية (جامعة دمشق).
- اتحاد الكتاب العرب.
- اتحاد الصحفيين.

من أعماله:

- العالم من حولنا.
- كوكب الأحلام.
- العابرون خلف الشمس.
- صوت من القاع.
- نافذة على كوكب الحياة.



الزَّمن الصَّعب

الزمن الصعب: رواية من الخيال العلمي / طالب عمران. -
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩. -٨٨ ص؛ ٢٠سم. -
(روايات من الخيال العلمي؛٥).

١-٨١٣,٠٨٨ ع م ر ز ٢-٨١٣,٠٠٩٥٦١ ع م ر ز
٣- العنوان ٤- عمران ٥- السلسلة مكتبة الأسد

ع-٩٢٥/ ٥/ ١٩٩٩

روايات
من الخيال العلمي

5

الزَّمن الصَّعب

الدكتور طالب عمران

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي للسلسلة : ٣٠٤٢
الرقم الاصطلاحي للحلقة : ١٢٦٧,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة : ISBN: 1-57547-412-3
الرقم الدولي للحلقة : ISBN: 1-57547-645-2
الرقم الموضوعي: ٨٥٠
الموضوع: القصة والرواية
السلسلة: روايات من الخيال العلمي
العنوان: الزّمن الصّعب
التأليف: د. طالب عمران
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٨٨ ص
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
الفصل الأول : حلم في ليل مظلم	٧
الفصل الثاني : السماء تمطر نجوماً	٣١
الفصل الثالث : يسمونها موجه الحس	٤٥
الفصل الرابع : الكوكب المحترق	٦٤
الفصل الخامس : زهرة بين الأنقاض	٧٨

الفصل الأول

حلم في ليل مظلم

أيها العالم الفسيح ، لسنا سوى بقايا مهملة تسبح في أنسامك ، نود أن ننعتق من قواقعنا الهزيلة لنمتد في أرجائك ، وننسج الحقائق من أوهام أحلامنا . الأرض تبعد تبعد ، ونحن نطير نطير ، والظلام في عباب الفضاء يمتد ، وليست إلا أضواء نجوم بعيدة ، وذرات ممتدة من دقائق النور ، تتصل لتكوّن شلالات وجدائل بلورية تبهر العين المحدقة .

كنت أقوم بالتدريبات العاديّة على متن طائرتي الحربية الاستراتيجية البعيدة المدى في ظهر ذلك اليوم الحار ، حين تعرضت الطائرة لزوبعة مغناطيسية قوية فوق منطقة من الصحراء ، كان من المفروض ألا تقع في خط طيراني ، حاولت السيطرة على الطائرة دون جدوى ، إذ إن محركها تعطل عن الدوران تماماً ، ثم بدأت تتمايل هاوية نحو الأرض ، وحاولت وأنا أتجه نحو الأرض التي تفصلني عنها عشرات ألوف الأقدام ، أن أشغّل المحرك الإضافي ، ولكن الآخر كان معطلاً .

أخـذ ذهني يعمـل بسرعـة ، كيف سـأتخلص من هـذه الـورطـة اللعينة ؟ كنت أحاول أن أتفادى تحطّم طائرة مرتفعـة الثمن والكلفـة كطائرتي ، ولما لم أفلح قـذفت الكرسي في الجو ، وهبطت بـالمظلـة ، وأنـا أرقب بحزن تهـاوي الطـائرة السريع نحو الأرض ، وانفجـارهـا ، واشتعال النيران فيها .

مـددت بصري وأنـا أتـأرجح بحبـال المظلّـة البرتقـاليـة ، أتـأمل الصحراء اللامتناهية الممتدة أمامي ، وذهني يعمل بسرعـة مفتشـاً عن حل يخلصني من هذا المأزق الخطير ، وأنا بعيد عن سير الطـائرات التي تتجنب الاقتراب من هـذه المنطقـة من الصحراء ، حيث تكثر الزوابع المغنـاطيسيـة ، وتتشوش أمواج اللاسلكي ، كما تكثر الحـوادث المفجعـة وتختفي الطائرات الضخمة بشكل غامض ، كأنها منطقة شبيهـة بمثلث برمودا في المحيط الأطلسي .

تفاديت السقوط قافزاً بخفّـة على الرمل ، وتخلصت من المظلـة ، ومن بعض ثيابي الثقيلـة ، كانت الحرارة شـديـدة لا تطـاق ، والشمس ترسل لهيبهـا اللافح والرمل يتوهج كالسعير . سرت ببـطء على الرمل الناعم وقدماي تغوصان فيه بضعة سنتمترات ، فيفقدني ذلك الكثير من قواي المتضـائلـة ، ورأسي يضج ويصخب بـالأفكار القلقـة .. دقـائـق قليلة وشعرت بالتعب من السير في هذه الصحراء المكشوفـة .. انتـابني

الألم وحطّ اليأس بثقله فوقي ، وغامت عيناي بدموع القهر والأسى . فجأة لمحت وأنا أجول ببصري الذي كان يغشاه الوهج شيئاً يبرق من بعد ، فخفق قلبي بعنف ، تأملت ألا يفاجئني سراب في الصحارى ، وبدأت أتجه بحذر صوب هذا الشيء اللامع ، ومما زاد في حبوري أنني كلما ازددت منه اقتراباً ازداد لمعانه . ميزته كان برجاً تحيط به جملة من النقاط السوداء .

خلق بي الأمل قوة وإصراراً وأنا أتابع اقترابي منه ، بدت النقاط السوداء أكواخاً صغيرة تحيط بالبرج الفضي اللامع ، كان الهدوء يسود المنطقة ، وقد انتشرت النباتات والأشجار الصحراوية متفرقة في منطقة قدرت مساحتها بستة عشر كيلو متراً مربعاً .

أنهكني الظمأ والتعب والحرارة اللافحة ، ولم أتمكن من المتابعة ، ثم غشي عيني الوهج وانتابني دوار هائل وأنا أكابر على نفسي .

كان كهلاً نحيفاً بنظارات سميكة يرمقني متفحصاً ، وأنا ممدد فوق أريكة مريحة في قاعة متطاولة ، مزخرفة الجدران ، تنتشر في سقفها أسطوانات زجاجية في داخلها تتحرك المؤشرات وتتذبذب ، انتفضت مرعوباً :

ـ أين أنا ؟

ـ لا تخف أنت في أمان .

ـ من أنت ؟

ـ خذ قسطاً من الراحة الآن ، سنتحادث فيما بعد .

غبت عن الوعي ، ولست أدري أكان ذلك بفعل التعب والألم ، أم بفعل الحاجة الماسة للنوم ، وقد مرت علي ساعات طويلة زادت مدتها عن اليومين ، لم أذق فيها طعم النوم . استيقظت بعد مدة وأنا أحس بالعطش ، قفزت من مرقدي أبحث عن الماء في القاعة المغلقة المصمتة الجدران ، وفجأة سمعت صوتاً من خلفي .

ـ عم تبحث ؟

ـ ظمآن وأبحث عن الماء .

أحضر الكهل ذو النظارات السميكة (مطرة) معدنية مزخرفة ، وقدمها لي أعب من مائها البارد ، وهو يتفحصني ثم سحبها من يدي قبل أن أرتوي وهو يقول :

ـ يكفيك هذا الآن .

استردت ذاكرتي قواها قليلاً :

ـ أين أنا الآن يا سيدي ؟

ـ تعال معي سنتبادل الحديث مع بعض الزملاء .

ضغط على زر بجانبه فانفتح في صدر القاعة باب أتوماتيكي يطل على قاعة أخرى .

يا للفكرة الحلم ، تلك المدينة العلمية العربية المشيدة تحت الأرض على عمق عشرات الأمتار تحت وهج الصحراء ، وحرها اللافح ، يشرف عليها علماء عرب متفوقون قدموا من أصقاع الدنيا للإسهام في صنع حضارة حديثة تعيد لأمتهم مجدها الغابر ، هي فكرة كالحلم قد تبدو مستحيلة التحقيق ، ولكنني عشت في حقيقتها ، وأنا مرتعش القلب ، خاشع الفكر . كيف يمكن للمرء أن يصدق عظمة الإنسان وعبقريته التي صممت هذه المدينة المعجزة التي تحقق لأهلها اكتفاءً ذاتياً معاشياً ، إلى جانب تطور صناعي في كافة المجالات .

بدأت الفكرة بالولادة ، حين اجتمع بعض العلماء العرب ممن يعملون في بلاد الغربة ، حيث تتحكم رؤوس الأموال والاحتكارات الأجنبية في مؤتمر علمي شامل ، وتحاوروا وتناقشوا فيما بينهم ، ثم نبتت الفكرة وتطوّرت ، وانتقلوا إلى تنفيذها ، بعد ذلك أرسلوا وفداً سرياً صغيراً منهم ، يبحث عن المكان الملائم الذي لا يخطر على بال أحد ، وتم اختيار تلك المنطقة الخالية العاصفة من الصحراء العربية .

وبدأ العلماء العرب يختفون من الدول الغربية في ظروف غامضة ، ويتجمعون في تلك البقعة التي قاسوا كثيراً حتى تمكنوا من السيطرة على ظروفها الصعبة ، وأطلقوا بعثاتهم السرية كي تجلب

الأدوات والأجهزة العلمية ، ومن ثم تطورها ، وتحسن تصاميمها ، وتستنبط أجهزة جديدة وتوظفها للمساهمة في المشروع الكبير ، ونجحوا بفضل تفوقهم العلمي ، وبزوا فيه بطول باعهم أقطاب علماء الغرب ، ومضت سنوات قبل أن يصل المشروع إلى ذروة نجاحه . كانت سنوات قاسية صمدوا خلالها أمام مباهج الحياة ولفظوها ، وفوق المنطقة أوجدوا زوابع مغناطيسية منذ الشهر الأول للبدء بالمشروع . طوروها فيما بعد ، وزادوا من تأثيراتها لكي لا يتمكن أي جهاز تجسس أو أي طائرة استطلاع مهما كانت متطورة أن تكشف عن تحركاتهم ووقع الطيارون بأشراك هذه الزوبعة وأجريت عليهم دراسات طويلة في حالة فقدان الوعي . فإن وجدوا لدى أيّ منهم ، استعداداً لقبول هذه الفكرة ، والإخلاص لها ، تركوه يعمل في مخابرهم العلميّة وأودعوه أسرارهم مطمئنين إلى إخلاصه وتفانيه في العمل ، إذ إن أجهزتهم في كشف مكامن النفس ، من حيث الصدق أو الكذب كانت فعالة لدرجة أن نسبة الخطأ فيها لم تتجاوز الواحد في المليون ، أما إذا وجدوا لديه أي أثر من المراوغة والمكر ، تركوه على طرف الصحراء في طريق قافلة ، أو على مقربة من مدينة نائية بعدها يسدلون على ذاكرته ستاراً من النسيان .

ابتعد جميع العاملين في المدينة عن الخلافات الهامشية ، أخلصوا

لعملهم ، وقوى العلم من الروابط التي تشدهم ، أما المنطقة فأصبح المرور الجوي من فوقها محرماً لدى كل الشركات التجارية ولدى خطوط الطيران الحربي الاستراتيجي العابر للقارات .

☆ ☆ ☆

كان البرج يشكل كرة ضخمة يزيد قطرها عن عشرة أمتار ، نصفها فوق الأرض ، أخذت أتفحصها مستغرباً دقة صنعها ، وإلى جانبي الكهل ذو النظارات السميكة ، يشرح لي مختلف الأمور التي استعصى علي تفسيرها ، كانت هناك جملة ثريات ضخمة معلقة في سقف البرج ، بدت في إنارتها أشبه بورود غريبة المنظر في لوحة فسيفسائية ملوّنة ، قادني الكهل إلى قسم العينات والتجارب لألاحظ مجموعة من الأقفاص تزدحم في داخلها كائنات حية مختلفة النوع والجنس (فئران ، أرانب ، قرود ، كلاب ، قطط ، زواحف ، أسماك ، نباتات ، أعشاب برية وبحرية) . تجري عليها الأبحاث الميدانية في مختلف الاختصاصات العلمية .

في زاوية من المكان ، كان هناك قرد أبيض اللون ، هادئ الملامح يتحرك في قفصه بحيوية مذهلة عرفني به الكهل وهو يقول :

ـ هذا هو (ورد) الذي هبط على الزهرة ، وعاد إلى الأرض موفور الصحة والنشاط ، درسنا تأثيرات جو الزهرة فيه فلفت

انتباهنا التغييرات الفيزيولوجية التي طرأت على تفكيره ورد الفعل الانعكاسي عنده ، إذ إن ذكاءه ازداد بنسبة خمسة أضعاف عن أذكى قردة البونجيدا ـ معدومات الذيل ـ وأكثرها تقبلاً للتعليم ، وهو الشمبانزي . ظل (ورد) لدى عودته فترة طويلة يقوم بحركات غريبة ، ويقلد أصوات ذبذبات إلكترونية ، ويخطط على اللوح الأسود الموجود إلى جواره خطوطاً عجيبة ، تدل على تصورات مذهلة حملتها ذاكرته لم نتمكن من سبر غورها بعد .

وإن رجحنا في احتمالاتنا ، أن هذا القرد الذي كان أسود اللون قبل هبوطه على الزهرة قد رأى أمامه كائنات غريبة لم تصل إليه ، وإنما راقبته عن بعد ، وأجرت اختبارات خاصة حول المركبة الفضائية التي أقلّته ، وهذا ما جعلنا نخمّن وجود حياة عاقلة فوق الكوكب المتألق ، الذي قيل عنه في الماضي إنه ربما يحمل شكل الحياة على الأرض قبل ملايين السنين .

وقفت أتأمل القرد ، الذي سكن وهو يتفحصني بنظرات غريبة ، لم ألحظها في أي نوع من القرود التي رأيتها في حديقة الحيوان ، وعندما مددت له يدي محيياً ، أمسكها برفق وصافحني وهو يبتسم ابتسامة بدت من خلالها أسنانه البيضاء اللامعة ، حثّني الكهل على متابعة الجولة وهو يقول :

ـ سنمر الآن على قسم الهندسة الفضائية في المحطة .

خرجنا من البرج ، واتجهنا صوب أحد الأكواخ الصغيرة ، ضغط الكهل على زر خارجي مموه لينفتح باب عريض ثقيل ، غطي وجهه الخارجي بعيدان القصب .

هبطنا الدرجات التي ظهرت لنا ، ثم ضغط الكهل على زر جانبي آخر لينفتح باب منزلق لنجد أنفسنا في قاعة كبيرة على جوانبها أبواب صغيرة وفي وسطها منضدة تحيط بها مجموعة من الكراسي المزخرفة التي نقشت عليها كتابات عربية بالخط الكوفي ، وفي صدر المكان خريطة واضحة للقمر وعلى جدار آخر خريطة ضخمة كثيرة الخطوط ، خمنت أنها لأحد الكواكب القريبة من الأرض في مجموعتنا الشمسية .

تحلق حول المنضدة بضعة رجال ونساء التفتوا جميعاً إلينا ، حيث سمعت عندها الكهل يقول متسائلاً :

ـ كيف الحال عندكم ؟ هل انتهيتم من رسم مخطط الرحلة ؟

وقف أحدهم وكان أشيب الشعر ، حليق الذقن والشارب ، وهو يقول :

ـ الرسم جاهز ، نحن بانتظارك لنعرضه عليك .

ـ سأعرفكم بصديق جديد إنه طيار حربي تعطلت طائرته بالقرب من محطتنا وهو متشوق لمعرفتكم ، لا تخافوا جميع الأجهزة أكدت لنا صدق طويته وإخلاصه .

ارتفعت مجموعة من الأصوات ترحب بي بلهجات ود مختلفة في حين قال الكهل :

ـ نحن نجري بحوثاً خاصة لدراسة كوكب الزهرة ، وقد أعددنا مخططاً لسفينة فضائية ، ستقل عدداً من الرواد في رحلة طويلة للهبوط فوق سطحه ، قلت بانفعال :

ـ وهل سيستغرق بناؤها وقتاً كبيراً ؟

ـ هيكلها جاهز ، سيتم بناؤها خلال عشرة أيام على أبعد تقدير ، نحن نجري تدريبات قاسية لطاقم الرحلة ، سنزورهم بعد قليل .

ـ ممن يتألف هذا الطاقم ؟

ـ أربعة رجال وثلاث نساء ، علماء ذرة ، فيزياء فضائية ، رياضيات فلكية ، جيولوجيا ، علماء في تاريخ الكواكب . وسترشح لجنة العلماء أحد أعضائها المدربين للإشراف على الرحلة ، وعلى الأغلب سأكون أنا ، إذ إنني قمت بثلاث رحلات فضائية حتى الآن : اثنتان منها إلى القمر ، والثالثة حلقت فيها بمحطتي الفضائية حول الزهرة .

ـ وهل باستطاعتكم قبول أحد المتطوعين ، كاحتياطي فيما لو حدث لأحد أعضاء الطاقم طارئ ماعطله عن الانضمام إلى رفاقه ؟

ـ أخذنا هذا بعين الاعتبار ، فهناك رجل وامرأة احتياطيان يتدربان مع أفراد الطاقم .

ـ ألا يمكن قبولي ضمن فريق التدريب الاحتياطي ؟

ـ أنت ، ما الذي دفعك إلى ذلك ؟

ـ بي ظمأ شديد ، منذ طفولتي للإيغال في أعماق الفضاء .

ـ سنتحادث في ذلك فيما بعد .

ـ أنا طيار ياسيدي ، وطيار حربي استراتيجي ، من السهل أن أستجيب للتدريب القاسي خلال مدة قصيرة .

ـ أأنت متزوج ؟ هل لديك أولاد ؟

ـ نعم .. طفلة واحدة .

ـ هذا صعب .

ـ ولماذا هو صعب ما دمت أعرضه عليك بكامل رغبتي ؟

ـ أوليس ممنوعاً علي أن أغادر المحطة إلى الأبد ؟

ـ لا .. ربما نطلب منك إحضار زوجتك وطفلتك بعد عدة أشهر إلى هنا ، حسبما تكون استجابتك واستيعابك لمشاريعنا .

ـ أرجوك ياسيدي أن تفكر في الأمر ، في أعماقي رغبة جارفة للانضمام إليكم .

ـ وزوجتك وابنتك ؟

ـ قد أعود إليهما سالماً .

ـ حسناً لنؤجل الأمر الآن .

☆ ☆ ☆

حدد سفر المركبة الفضائية التي أطلق عليها الاسم المركب (ابن حيان ـ ١٦ع الجوزة) كناية عن شبهها العجيب بالجوزة ، وتيمناً باسم العالم العربي الكبير (جابر بن حيّان) .

اجتزت اختباراتي بنجاح ، بعدما قطعت شوطاً بعيداً في تحمل المشاق ، فمن ركوب طائرات ذات سرعات عظيمة تحلق على ارتفاعات عالية ، إلى هبوط بالمظلات ، إلى الخضوع لدرجات عالية من الحرارة أو لدرجات منخفضة من البرودة ، إضافة لقياس تجاوبي الذهني ومتانة أعصابي ، والقيام بتمارين رياضية شاقة لعدة ساعات في اليوم ، وقد أوضح لي العالم الكهل ، أن هدف كل هذه الاختبارات ، تحويلي إلى رائد فضاء حقيقي ، يتمتع بمتانة وقوة أعصاب ، وهدوء في اللحظات الحرجة ، إضافة لنسيان كلمة في قاموس الذاكرة اسمها (التعب الناتج عن الخوف المفاجئ) .

أخذنا نعد الساعات والثواني التي تفصلنا عن السفر ، ونحن متشوقون للانضمام إلى طاقم الرحلة ، والرجاء الدائم أن يحدث طارئ

ما لبعض أفراد الطاقم على أن يحل محله واحد منا . كانت لحظة من أمتع لحظات حياتي ، حين سمعت الكهل يهتف باسمي من خلال جهاز الاتصال المعلق على الصدر طالباً فيه أن أحضر لمكتبه ، لأن لديه خبراً ساراً ، وكنت متأكداً أنه يعني بذلك السماح لي بالانضمام إلى طاقم الرحلة .

تبلغت الأمر ، وأنا أرتعش في داخلي من الحبور ، يا الله إنها بالفعل لحظة حاسمة في حياتي لم أحلم بأن تتحول إلى حقيقة ساطعة كما أراها اليوم ، قضيت الساعات الطويلة التي تفصلني عن السفر ، وأنا أتحرك بحيوية ونشاط ، أتذكر في فترات متباعدة زوجتي وابنتي ، دون أن أحفل بالفراغ الكبير الذي سأخلفه ورائي ، كنت منذ لحظة تلقي نبأ صعوبة السماح بمغادرة المحطة إلا بعد فترة طويلة ، قد اعتبرت نفسي ضائعاً منفياً في جزيرة مجهولة في أقاصي المعمورة .

في اليوم الموعود ، غادر العمال المركبة الفضائية (ابن حيان) ، بعدما تفقد الفنيون أجهزتها الإلكترونية المتطورة ، عدة مرات ، بدقة كبيرة ، ثم وضعت الأسلاك في مأخذ الاستقطاب الكهربائي ، حيث ستنطلق المركبة بعد زخمها بشرارة كهربائية عالية تشعل وقودها الصلب ، لتنطلق منفلتة من مجال الجاذبية الأرضية .

لم يتبق أمامنا سوى ساعتين ، كنا نرتدي بزاتنا ، نجلس في

أمكنتنا المحددة ، نراقب على شاشات التلفزة الموزعة داخل المركبة ، وجوه العلماء والمهندسين في المحطة الأرضية ، صلة وصلنا بالعالم الأرضي . كان الانفعال يجتاحنا ، على الرغم من كل التدريبات التي استهدفت تخفيف حدته ، كانت مهمتي في (ابن حيان) أن أتناوب وزميل لي على جهاز التقاط الصور والتلفزة المضاعفة من الأرض ، أو الفضاء .

صدرت الأوامر بالاستعداد لدرجة قصوى ، وبدأت مرحلة العد التنازلي ، شد كل منا حزامه واستلقينا على ظهورنا بعد أن وجه كل منا مقعده الآلي الحركة ، على مستوى أفقي ، (تسعة وتسعون ثمانية وتسعون ..) نظرت حولي أراقب وجوه زملائي الغارقة في الشاشات الموزعة حولنا ، (ثمانون .. تسعة وسبعون ..) تمليت الوجوه المبتسمة من علماء المحطة الأرضية (ستون خمسة وخمسون .. ثمانية وأربعون ..) .

لم أنتبه بعد إلى الأرقام التي ينبعث عدّها من الميكروفونات الداخلية في المحطة ، في تلك اللحظات تذكرت زوجتي وابنتي ، أحسست بألم عميق يعصر قلبي ، أنا ذاهب إلى حتفي بأنفي متخلياً عنهما بهذه السهولة ، ياإلهي ماأشد تعاستي ؟

(عشرة .. تسعة .. ثمانية ..) العد يقترب من لحظة الصفر إنها

اللحظة الحاسمة (خمسة .. أربعة .. ثلاثة ..) الوجوه المبتسمة المشجعة المسمرة علينا من أجهزة التلفزة (اثنان .. واحد .. صفر) لم أشعر بارتعاشة سيطرت على قلبي من جراء الارتفاع الكبير المفاجئ ، لقد ولّد المحول الشرارة التي أشعلت الوقود الصلب ، إنكم على ارتفاع خمسة آلاف كيلومتر ، بعد قليل تبدأ مرحلة الدوران حول الأرض .. تحياتنا لكم .

حولت نظري عن جهاز التلفزة ، إلى كوة زجاجية ، أتأمل الفضاء من حولي ، بدت لي السماء في تلك اللحظة بلونها الأسود الداكن تزينها نجوم كابية الضوء برّاقة ، نحن الآن فوق شبه الجزيرة العربية ، إننا نقترب من مكان محطتنا في صحرائنا العربية ، قلوبنا يملؤها الشوق واللهفة لتحقيق الحلم .

السماء سوداء ، تلمع فيها النجوم ، الشمس كابية الضوء تصلنا أشعتها الخافتة ، والقمر يبدو في السماء كالصحن اللامع ، خلبني منظر السماء والأرض السابحة ، ولم أفق من ذهولي إلا على صوت زميلي .

ـ اقتربت لحظة الاتجاه للقمر ، تعال خذ مكانك .

عدت إلى مكاني أتأمل وجوه علمائنا في المحطة الأرضية ، كانوا يتشاورون فيما بينهم ، سمعت فجأة صوت أحدهم يخاطب رئيس بعثتنا بأن الوقت قد حان لتحريك جهاز شعاع الليزر ، حيث

ستنتقل موجة بطول معين تحرف سفينتنا عن مسارها وتوجهها في مسار جديد .

تمت المرحلة الأولى الهامة من الرحلة ، إننا نتجه إلى القمر سوف نتزود منه بالوقود ويتولى علماء المحطة القمرية توجيهنا ، إلى أن نقع في مسار توجيه المحطة الأرضية ، نحن في أتم صحة ، الأجهزة تعمل بانتظام . ارتفعت درجة الحرارة قليلاً لدى خروجنا من جو الأرض ، ولكن المنظم الأتوماتيكي عدلها .

بعد ساعة أرضية سوف نتناول وجبة الظهيرة .

كانت الوجبة مكونة من أقراص وحقن وبعض العصير .

تفرس فِيَّ العالم الكهل ذو النظارات السميكة ، وابتسم مشجعاً .

ـ انتبه جيداً إلى الأجهزة ، سنصل الزهرة ، ونغرس علم حضارتنا على سطحه ، شاهداً على تفوقنا العلمي .

☆ ☆ ☆

مكثنا أقل من أربع ساعات على القمر ، زرنا خلالها بحر الهدوء وبحر العواصف وفوهة (كيبلر) البركانية ، شربنا الماء النقي في المحطة ، قفزنا إلى مسافات شاسعة ، تبارينا في قذف الحجارة إلى أمكنة بعيدة ، مستغلين جاذبية القمر الضعيفة .

كنت أثب لمسافة تزيد عن عشرة أمتار ، وألقي بالحجارة فترتفع نحو (٥٠) متراً ، وتهبط متثاقلة كأنما تحملها مظلة صغيرة .

تزودنا بالوقود من المحطة القمرية ، انطلقت مركبتنا في مدارها حول القمر ، وقبل أن تستقر في مدارها طالعتنا وجوه علماء المحطة الأرضية ، الذين حددوا المسار الجديد الذي سننطلق خلاله بسرعات خيالية نحو كوكب الزهرة في محاولة جادة لاكتشاف هذا الكوكب ، القريب من الأرض .

انتبهوا جيداً ، أحد المذنبات يقترب من الزهرة ، وسوف يتقاطع مساره مع مسار السفينة احذروا الشهب والنيازك المنطلقة منه .

وصل إلى سمعي صوت الحاسوب الإلكتروني المتطوّر :

ـ سوف نريكم برنامجاً تلفزيونياً مسلياً خلال ربع ساعة .

كان يجب قبل ذلك أن نتأكد من دقة الأجهزة ونضبطها على المسار الجديد ، الذي حدّدته لنا المحطة الأرضية .

انفتح باب الحجرة الإلكترونية التي يشرف عليها العالم الكهل قائد الرحلة ، الذي أسرع بالابتعاد عن المسار والمذنب ، واحتمالات التصادم .

لا تقوموا بأي عمل ، لا تحرفوا السفينة عن مسارهـا ، أقل انحراف قد يبعدها عن مجال جـاذبيـة الزهرة .. جهزوا (الحـامي الصلب) ، وإن احتجتم لاستخـدام حـاجـز الرصـاص فـاستخــدمـوه ، لا تحرفـوا السفينة مهما ضايقتكم النيازك .

بعد هنيهات ، بـدأ البرنـامج التلفزيوني وكان مكونـاً من فقرات ضاحكة مدروسة لدغدغة الأعصـاب المتعبـة ، لم أكترث بـالبرنـامج ، تركت مكاني (خلف جهاز المراقبـة) واتجهت إلى الكوة أرقب الأرض تبتعـد والقمر يتضـاءل والنجوم التي كانت كابيـة بـدأت ترسل الضوء الملون ، نظرت إلى عـدّاد السرعـة فـوجـدت أن سرعتنـا قـاربت مئـة وعشرين ألف كيلومترٍ في الساعة .

اجتـاحني الانفعـال لأول مرة في حيـاتي ، بـدأت أفكر جــديـاً بالموت ، ما الذي يمنع سفينتنا من الانحراف والضياع في الفضاء ، على الرغم من دقة أجهزتها العلمية وتطورها .

سمعت صوت العالم الكهل خلفي :

ـ لماذا لا تشاهد البرنامج ؟

ـ أحس بالملل والقرف .

ـ هذه أول بوادر الخوف والانهيار تعال وتناول هذا القرص .

نفذت أمره وتناولت القرص فغمرتني راحة عجيبة ، وبدأت عندها استمتع بالبرنامج الترفيهي .

أيها العالم الفسيح ، لسنا سوى بقايا مهملة نسبح في أنسامك ، نود أن ننعتق من قواقعنا المزيلة لنمتد في أرجائك وننسج الحقائق من أوهام أحلامنا ، الأرض تبعد تبعد ، ونحن نطير نطير ، والظلام في عباب الفضاء يمتد ، وليست إلا أضواء نجوم بعيدة وذرات ممتدة من الدقائق اللامعة ، تتصل لتكون شلالات وجدائل بلورية ، تبهر العين المحدقة .

فكرت وأنا أسرح بفكري عبر هذا الفضاء الممتد : « آه كم أحس بالحنين إلى الانطلاق والتحرر من هذه السفينة السابحة والتغلغل في الفضاء ».

أسمع صوت العقل الإلكتروني .

انتبهوا المذنب يستطيل أمامكم .

بدا المذنب شديد الضخامة والاتساع ونحن ننطلق بسرعتنا العظيمة نحوه .

إياكم وتغير المسار قد تضيعون في الفضاء ، أنزلوا الحزام الواقي ، وانتبهوا جيداً إلى الأجهزة الإلكترونية .

بـدت السفينـة كالريشـة في مهب الريح ، النيـازك والـدقـائـق المعدنيـة والأتربـة الموجودة في المـذنب تنهـال عليهـا فيسمع لهـا صوت كوقع الرصاص .

وبدأت القلوب تصلي وامتدت الأيدي تستنجد بالمسكنات .

فجأة انطفأت الصورة من شاشة الاستقبال مددت يـدي أحـاول إرجاعها ، بلاجدوى . لقد طرأ خلل عطّل أجهزتها عن الاستقبال .

صاح العالم الكهل :

ـ ياللهول السفينة تقترب من نواة المذنب ، إنهـا الكارثـة ، لا بـد لنا من المغامرة ومحاولة الخلاص من هلاك حتمي .

ضغط بإصبعه على أحـد الأزرار فـإذا نحن ننفلت من موقعنـا في قلب المذنب ، وآلاف النيازك الصغيرة تقرعنا .

ـ حاول الاتصال بالأرض ، يجب تصحيح مسارنا .
ـ جهاز الاستقبال ، عاطل تماماً .
ـ استعمل الجهاز الإضافي .

أدرت عجلـة جهـاز الاستقبـال الإضـافي بعنف لتمتـد هـوائيـات جديدة خارج السفينة :
ـ إنه لا يستقبل أيضاً .

أخذ العالم الكهل مكاني :

ـ سأحدد مسار السفينة ووجهتها .

وبعد لحظة ارتفع صوته يغمغم بذهول :

ـ إننا ننفلت خارج المجموعة الشمسية بسرعة تزيد عن (١٥٠) ألف كيلومتر في الدقيقة يا للهول سرعتنا تزداد بشكل مخيف .

يبدو أننا خاضعون لجاذبية نجم هائل .

ـ إنها الكارثة .

ـ اهدؤوا جميعاً ، يجب أن نواجهها بشجاعة .

من كوة السفينة ، بعد أن رفعنا الغطاء الواقي ، فاجأنا منظر جديد للسماء ، نجوم ملونة بالأزرق والقرمزي والأحمر والأصفر والأبيض تبرق فتبهر أبصارنا ، أين نحن الآن ؟ لم نصب بهستيريا أو انهيار عصبي ، كأننا بعيدون عن الهلاك الحتمي .

ـ السرعة تتضاعف بشكل مريع ، مئة ألف كيلومتر في الثانية مئة وخمسون ، مئتان وخمسة وعشرون ، يا للهول .

شيء ما يعصر قلبي ويحطم أعصابي ، كلنا انتابنا الشعور نفسه وصلت بنا الآلام إلى حد الإغماء ، وبعد ثوان عادت إلينا قوانا وسيطرت على كل منا حالة من الذهول ، ونحن نرقب مؤشر السرعة

يتوقف على أربع مئة ألف كيلومتر في الثانية ، أي أكبر بكثير من سرعة الضوء ـ وهي أعلى سرعة معروفة ـ أي نظرية اكتشفناها ونحن في سبيلنا إلى الانتحار الإجباري في بطن نجم ضخم ذي جاذبية هائلة ؟

إننا نقترب من حلقات ملونة ، تحيط بكوكب لامع ، بالتأكيد ليس هذا الكوكب (كوكب زحل) أجمل الكواكب في مجموعتنا الشمسية ، اخترقنا الحلقات الشفافة تضاءلت سرعتنا ، عادت إلينا حالة الغثيان ، أصبحت السرعة مئة وعشرين ألف كيلومتر في الثانية ، مئة وعشرة آلاف ، ثلاثين ألفاً ، ثمانية آلاف .

يلوح منظر الكوكب ، تبدو جباله الوردية اللامعة ، ونحن نقترب بسرعة تتضاءل ، ارتجاج عنيف مصحوب بقرقعة (هوب) .

حطت السفينة فوق سطحه الصلب ، ياللهول ، أرجلنا كأنها دقت بمسامير كيف السبيل إلى الحركة ؟ لا بد أن هذا الكوكب ضخم جداً حتى يمتلك هذه الجاذبية ، أوه أعتقنا من القيود التي كبلتنا ، بدأنا بالطيران في الفضاء الضيق بالسفينة ، ياإلهي ، الباب ينفتح ، قفزة واحدة وضعتني بعيداً عنها لعدة أمتار ، الأرض تبرق ، الصخور تشع ، أين نحن الآن ؟

ـ أنتم فوق الكوكب الفوسفوري .. أهلاً بكم .

ـ ياإلهي أهذا معقول ؟ ما هذه الأصوات الغريبة ؟ من يتحدث معنا ؟ .

ـ نحن من سكان الكوكب .

وأين أنتم ؟ لا نرى أحداً ؟

ـ نحن نختلف عنكم بالعديد من المواصفات الفيزيولوجية ، لذلك لن ترونا .

نجم ضخم يتوهج في السماء يبرق بألوانه الزاهية .

ـ ما هذا ؟

ـ شمس كواكبنا العشرين .. كوكبنا السادس في ترتيب البعد عنها .

ـ إلى أين تقودوننا ؟

ـ إلى مخابرنا ، لنقرب اللغة التي نتخاطب بها معكم بشكل أفضل .

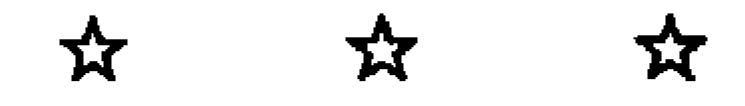
ـ وكيف وصلتكم لغتنا العربية ؟

ـ من أذهانكم المتعبة ، التي بذلنا جهوداً مضنية لفك طلاسمها وألغازها .

لم نكن ننبس بكلمة كنا نشعر أننا نتخاطب مع مخلوقات غير

مرئية تدور حولنا ، قوى عجيبة مـذهلـة تقودنـا في وديـان الكوكب ومرتفعاته .

بـاب ينفتح في سطحـه المبسوط المتحجر ، تمتـد في أعمـاقـه سلالم متحركة بدأنا ننزلق فوقها ، وإذا بنا في غرفة واسعة ينيرهـا الفوسفور وتمتد الأجهزة الغريبة في جـدرانهـا . وتبـدأ الأجهزة تستطيل وتـدور وتتوهج وتتحرك مؤشراتها ، وعبر لمعان الضوء في السقوف والجدران ، تـوضحت لنـا خيـالات وأشبـاح متطـاولـة ضخمـة تتحرك بتنـاوب مستمر ، وبشفافية رائعة ، رأيناكم تتخبطون في أعماق المذنب ، وعندما حرفتم السفينـة عن مسـارهـا وتهتم لمسـافـات شـاسعـة في هـذا الفضـاء السحيق تدخلنا في الوقت المناسب لننقـذكم من خطر جـاذبيـة شمسنـا الهائلة ، قبل أن تبتلعكم بسرعة مذهلة .



الفصل الثاني

السماء تمطر نجوماً

آه يا حبيبتي .

عبر هذا العالم الفسيح ، أتلمس أنفاسك توقظ في نفسي العطاء والحب . وجهك المحزون يتراءى لي خلف ضباب الحزن الذي يغلف قلبي ، فأكاد أتمزق . كيف لرأسك الصغير أن يستوعب هذا الواقع الجديد الذي أحياه الآن في كوكب عجيب يبعد مليارات الكيلومترات عن أرضنا وبين كائنات متفوقة ، تمكنت من الإحاطة بكافة مجالات المعرفة ، حتى سمت عن خيالاتنا .

سأرفض لأجلك كل عروض الخلود ، ولن أتناول الإكسير ، خوفاً من أن يضيع وجهك المحزون في تيارات القوى الجديدة المجهولة .

يعيش فوق الكوكب الفوسفوري ، حوالي مئة مليار كائن ، تزين سماءهم ثلاثة أقمار بديعة ، يعيش فوقها ستة مليارات منهم .

ليس على الكوكب حكام أو ولايات ، وإنما ينقسمون إلى فئات علمية مهمتها الرئيسية البحث في مختلف اتجاهات العلوم .

بعضهم يسير البطارية الهائلة التي تعبئ مخزون ما يسمى بتاريخ الكوكب منذ ملايين السنين الفوسفورية .

وآخرون يمسحون السماء بأجهزتهم المرعبة التي تسجل انفجارات النجوم وتباعد المجرات ، وخزن الطاقة وتفريغها . ليس على الكوكب ما يسمى بمساكن أو ما يسمى بأسر أو عائلات أو قبائل أو عشائر أو بلدان .

مع الزمن تكبر طاقة الكائن الفوسفوري يفرغها في المدخرات الرياضية والمدخرات التاريخية ، لغة التخاطب بينهم الموسيقى ، وتسيطر على علمائهم ما تسمى بالرياضيات السماوية ، التي تدرس النجوم ، أعمارها ، مستقبل المواد التي تكونها الحياة على كواكبها ، تطورها المطرد . يتوقعون ما سيحدث بعد آلاف السنين بفضل قوانين الاحتمالات الفائقة الدقة .

استرعى انتباهي والشاشة ذات الصور المجسمة المذهلة تنقلنا إلى عالم الكوكب الفوسفوري غياب الكراهية والحقد والأثرة والخوف . الكل سواسية يعملون لأجل التطور العلمي ، واكتساب المزيد من المعرفة في سبيل تحقيق طموحاتهم .

فوجئنا بأقفاص شفافة بها كائنات نباتية من كوكبنا الأرضي ، ويبدو أن الجهاز قرأ أفكاري فقد اقتربت الصور المجسمة مني ، وامتدت زهرة بتول قطفتها وأنا أقول :

ـ إنها من كوكبنا ، كيف وصلت إلى هنا ؟

هي عينة من عينات الحياة على الكوكب ، سنرسلها إلى المدخرات التاريخية لدى مكان وزمان إحضارها ، وعندها سنعرف من أي كوكب أنتم .

ضغط على أحد الأزرار ، اختفت الزهرة من يدي وعدنا نراقب الشاشة التي نقلتنا إلى عالم الأقمار التي تحيط بالكوكب ، وتحدثنا مع عدد من الكائنات فوقها عن طريق قراءة الأفكار ، وجرى نقاش طويل حول تركيب الشموس والأقمار والكواكب ، والحياة فوقها ، رغبنا جميعنا ـ نحن أفراد الطاقم ـ معرفة تاريخ تطور الكوكب .. تشاورنا مع الكائن الكهل الذي ضغط بعض الأزرار بجانبه ، فبدأت الأحداث تنفلت من المدخرة التاريخية ، وعشنا لحظات طويلة من القلق والدهشة ونحن نتابع الأحداث المذهلة .

☆ ☆ ☆

منذ ملايين السنين الفوسفورية كانت هذه الكائنات مادية تتقاتل فيما بينها وتتعارك ، إلى أن استحدثت لنفسها نظاماً معيناً

نبذت من خلاله البغضاء والحقد وبدأت تتحاور وتكون مجتمعات متساوية ، اندمجت بعد مرور الزمن في مجتمع واحد متماثل ، وتطور حتى تلاشى مع الزمن تكوينها المادي ، ولم يبق منها سوى طاقات خلاقة مبدعة ، غزت الفضاء وأنهت النزاع بين سكان كواكب الشمس الفوسفورية وتكاثرت فيا بينها بالحب والتعاون الجماعي .

☆ ☆ ☆

قضينا وقتاً لم نستطع تحديده ونحن ننتقل عبر الأجيال التي مرت على الحياة فوق الكوكب الفوسفوري ، كان كل شيء يبدو لنا مستحيلاً يتجسم أمامنا على شاشة حية ، ونحن مذهولون غاب عنا الزمن .

أحسسنا بالإعياء والتعب والجوع ، وكأن تلك المخلوقات شعرت بنا نعاني من ذلك . فأحضرت لنا نماذج من غذاء حقني ، أخذنا زرقات خفيفة من الحقن المغذية ، وكان الأوكسجين على وشك النفاد ، حين طلب منا الكهل الفوسفوري خلع الكمامات ، لأن ما حولنا من أوكسجين يمكننا من التنفس بطمأنينة ، وعندما خلعنا الكمامات طالعتنا رائحة عذبة تغلغلت إلى صدورنا ، فأحسسنا بالانتعاش والقوة .

قال لنا الكهل الفوسفوري :

ـ عرفنا كوكبكم إنه يبعد عن كوكبنا نحو عشر سنوات ضوئية .

فقال له قائد الرحلة :

ـ كيف قطعنا هذه المسافة الهائلة ؟ خيل إلينا أننا لم نتجاوز سرعة الضوء إلا لثوانٍ ؟

ـ عندما تتجاوز المادة الحية سرعة الضوء ، ضمن ظروف تشجع حياتها ، تكون المسافات التي تقطعها خيالية .

ـ هل يعني ذلك أن الزمن يفقد بعده ؟

ـ تقريباً .

ـ وكيف سنتمكن من العودة للأرض ونحن على هذه المسافة الخيالية ؟

ـ أمصممون على العودة ؟

ـ نحن مخلوقات خاصة كما تعلم .

ـ لم لا تبقون معنا ؟

ـ أنتم طاقات هائلة خلاقة ونحن مواد مقيدة بعالم محدود ، يفرض علينا التقوقع والحصار .

ـ ستتحولون إلى طاقات خلال أزمنة ليست بعيدة .

ـ وإن أدركتنا أسباب الموت .

ـ سنحاول الكفاح معكم ضدها .

ـ دعونا نتشاور في ما بيننا لبعض الوقت ، نحن في حاجة لاستيعاب ما حدث لنا ، وفهم ما يجري حولنا .

في حجرة سباعية الجدران مزينة جدرانها بصور فسيفسائية مريحة للنظر ، اجتمع طاقم رحلتنا ، بدأنا نتشاور في ما بيننا حول الأحداث المذهلة التي جرت لنا ، وكيف سنعود إلى أرضنا ونحن على هذه المسافة السحيقة منها ، أفي رحلة أخرى حافلة بالضنا والعذاب غير مأمونة العواقب ؟ قال لنا القائد الكهل ذو النظارات السميكة ؟

ـ هي فرصة نادرة أن نبقى هنا ، ربما بعد ألف سنة نتمكن من العودة إلى كوكبنا .

ـ ومحطتنا في قلب الصحراء ، طموحاتنا أحلامنا ، مشاريعنا ، وهل سنفارق إلى الأبد أحبابنا ؟

ـ لنناقش الأمر بهدوء ، نحن هنا بين كائنات غريبة ، سلكت مسلكاً فذاً في طريق الحضارة فسمت وتفوقت ، حتى استطاعت بناء أولى ركائز القدرة على التغلغل في أعماق الكون .

ما يربطنا بالأرض علاقات تتحكم فيها العاطفة ، لنفرض أننا تهنا في الفضاء ، أو ابتلعنا نجم ملتهب ، أو أن كارثة ما حلت بسفينتنا الفضائية ، عندها ستنقطع كل الصلات التي تربطنا بالأرض .

نحن الآن أمام حياة جديدة ، غريبة فوق العادة ، وبين كائنات لم نحلم ـ على سعة خيالنا ـ بأننا سنقابل مثيلاتها في مكان ما ، من هذا الكون الأحدب ، لا أدري ما الذي يدعونا للتردد في اختيار الطريق الصحيح السليم ، أنا شخصياً وأنا قائد رحلتكم ـ سأختار هذا الطريق دون تردد ، ليس حباً بالخلود ، بقدر ما هو شغف بالمعرفة ، هنا تكمن القاعدة الحقيقية للعلم وسعة الإدراك ، لن تتوفر لنا فرصة خرافية مثل هذه الفرصة .

ـ تقول هذا لأن الحضارة الجديدة بهرت تفكيرك ، لن تبقى على هذه الحالة طويلاً سيعاودك الحنين إلى الأرض خلال أيام أو شهور وربما لسنين ليست بعيدة .

ـ لم أكن في مثل هذه القناعة التي أتكلم بها الآن ، أؤكد لكم .

سمعت الحوار وأنا في حالة من القلق والدهشة والاستغراب ، لم أمر بها طوال عمري . كيف لكائن أرضي مثلنا أن يحتمل هذا التردد الذي يستوعبنا كلية ؟

نظرت إلى جارتي الشابة ، طالعني وجهها الوردي باهتاً حزيناً ، ولست أدري ما الذي جعلني في تلك اللحظة أتذكر زوجتي وابنتي الصغيرة ، انسابت دموعي رغماً عني فمسحتها بطرف كمي ، وغرقت في عذابٍ مضنٍ ، فجأة تكهربت يدي أحسست بها تتخدر ، ارتعش

جسدي حط علي خدر لذيذ ، وغبت عن وعي لثوان ، كانت كافية لأسقط على الأرض الصلبة ، امتدت الأيدي نحوي والأصوات الحنونة تستفسر :

ـ خير ما الذي أصابك ؟

لم أكن أملك القوة لأجيب ، وإذا بوجه وقور يطالعني ، ويد معروقة نحيلة تدلك يدي ، وتنهضني بقوة عجيبة ، أصابني دوار عذب ، تنبهت حواسي فجأة ونهضت متماسكاً ، وكأن شيئاً ما حط في ذاكرتي .

قادني الكهل الفوسفوري ، وهو يتمتم بصوت لم أفهم منه شيئاً ثم خاطبني قائلاً :

ـ ستنظر المدخرة الطبية في حالتك .

ـ المدخرة الطبية .. ماذا تقصد ؟

ـ سننفحك بإكسير الخلود ، إنه العلاج لكل أمراض القهر والحرمان والشوق المضني ... كنت مقوداً باللاشعور ، وليس إلى جانبي أحد من رفاق رحلتي وكأن الكهل قرأ أفكاري :

ـ لا تخف سنعود سريعاً .

ـ يا بني العلم القائم على الرياضة لا يخطئ أبداً .

دخلنا أحد المصاعد المتحركة التي أخرجتنا من كهوف الكوكب

الفوسفوري لنسبح في ضوء شمسه اللامعة ، رفعت رأسي أرقب السماء المزدانة بالأقمار ، إنها مشاهد خرافية لا يمكن وصفها ، سماء لامعة زمردية ، يسبح في أثيرها بدر متوهج ، يشع الضوء الأصفر ، وخلف الأفق قمر بعيد يتلاشى ضَوْءُه الأحمر ، أما الشمس الفوسفورية فكان بريقها يخطف الأبصار . ياإلهي في أي جو غامض أنا (وبصحبة أي كائن خرافي يشد يدي بيد مجهولة المصدر صنعها لنفسه وصنع حركتها وتكوينها) ، أحسست بضيق في صدري إني أختنق .

أسرع الكهل يركب خوذة الفضاء فوق رأسي ، أما من أين جلب أسطوانتي الأوكسجين فلاأدري ، كل ماأعرفه أن أسطوانتين صغيرتين حملتا على ظهري بحيث بدأت أتنفس بعمق وارتياح ، وقد تمالكت قواي ، ولم أملك إلا أن ألهج بالثناء على صديقي الكهل الذي جعلني أعاود نشاطي بسرعة مذهلة .

ركام من الأحاسيس العاطفية والانفعالات غمرتني وأنا أقترب من المدخرة الطبية ، ذات الحجم الهائل ، ويدي مدلاة جانبي لاأحس بأي علاقة لها بجسمي .

امتدت أمامي المدخرة الطبية على مساحة شاسعة ، وقد ملأتها القضبان الرفيعة الممتدة وأجهزة التلفزة والرادار ، أو هكذا بدا لي ، شكل هندسي عجيب ، يتربع بشموخ فوق هضاب وتلال مسننة ، وهو

يصخب بكل معـالم الحركـة ، التي لم أستطـع استيعـابهـا ، عـاودتني في تلك اللحظة أيضاً ذكرى زوجتي وابنتي ، شعرت بأن قلبي تعتصره يد قاسية خشنة ، امتدت تقبض على خنـاقي ، فبـدأت أبكي ، ولم أتـذكر الحبوب المهدئة الملفوفة بعناية حول وسطي .

آه يا حبيبتي ، عبر هذا العـالم الفسيح أتلمس أنفـاسـك توقـظ في نفسي العطــاء والحب ، ووجهــك المحـزون يتراءى لي خلف ضبــاب الحزن الذي يغلف قلبي فأكاد أتمزق .

كيف لرأسك الصغير أن يستوعب هذا الواقع الجديد الذي أحياه الآن في كوكب عجيب يبعد مليارات الكيلومترات عن أرضنا ، وبين كائنات متفوقة تمكنت من الإحـاطـة بمجـالات المعرفـة حتى سمت عن خيالاتنا .

سأرفض لأجلك كل عروض الخلود ، ولن أتنـاول الإكسير خوفـاً من أن يضيع وجهك المحزون في تيارات القوى الجديدة المجهولة .

أحاسيس عجيبـة طيعـة بـدأت تغمر خيـالاتي ، اختفت الصورة الحلوة النـابضـة بـالحيـاة لزوجتي وتملكتني مشـاعر جـديـدة ، وجهت تفكيري صوب هـذه الأسلاك الرفيعـة المنتشرة حـول المـدخرة ، وقـد بدأت تطلق شرارتهـا لتتجمع حول كائنـات في صور بشريـة سمحـة ،

كأن عالماً مسحوراً بدأ يتشكل فوق سطح هذا الكوكب الوادع .

رمقني صديقي الكهل الفوسفوري :

ـ سنمنحك جرعة صغيرة تجدد قوتك ، فقط سنحقق لك علاجاً طبياً متطوراً يعيدك إلى طبيعتك ، ويساهم في زيادة فعاليتك العضوية ونشاطك الفيزيولوجي .

ـ أفكاري مضطربة قلقة وذكرياتي الأرضية تضيق علي الخناق .
ـ ستتغلب على كل هذه المظاهر بقليل من الطواعية .
ـ ألا يمكنكم بتطوركم العلمي ، أن تقرؤوا لنا مستقبلنا ، قد يفيدنا ذلك في تلمس الحل الناجح لمشكلتنا .

ـ هذا مستحيل ، ما دام تركيبكم يحتم عليكم الموت بعد زمن ، لو شربت من هذا الإكسير لما كان هناك داع لطرح مثل هذه التساؤلات ، إذ إن العمل المتواصل ، والفكر المقرون بالتجربة والمعاناة ، لا يدع لك المجال لإبراز نفسك كعنصر في مجتمع مركب على تكملة بعضه بعضاً .

☆ ☆ ☆

اقتربت من جهاز ، بدا كأنه أعد للتصوير الشعاعي المتطور ،

وقفت خلفه لثوان ، لينفتح ورائي باب صغير ، وتطل منه ممرضة حسناء تحمل في يدها حقنة ، ابتسمت لي بحنان ، وهي تسوي ذراعي ، وترفع عنها لفائف البذلة الفضائية التي ارتديها ، ثم غرست رأس الحقنة ليغوص حدها في ساعدي ، قبل أن تسحبها بمهارة وتودعني بابتسامة ساحرة ، وتعود من حيث أتت ، بعدما أغلقت الباب وراءها ، أتت واختفت كالحلم ، تاركة ذراعي المكشوفة تؤكد لي حقيقة ما حدث .

اقترب مني صديقي الكهل يرافقني في رحلة العودة إلى رفاقي تحت أرض الكوكب الفوسفوري ، أسئلة عديدة دارت في ذهني ، قرأها صاحبي وتملاها قبل أن يفوه بعباراته .

ـ أجهزتنا العلمية ، درست مخيلاتكم ، وفرزت ماهية الحياة على كوكبكم ، وهذا ما جعلك تستوعب الطريقة التي عالجناك بها ، كما لو كنت تعالج في مستشفى أرضي .

أشياء كثيرة تعلمناها ونحن في صراعنا مع قوى الشر ، سجلتها مدخراتنا بدقة ، وأمنت لنا الحماية ، والأمن وعدم التفكير بالعودة إلى الماضي بكل مآسيه وأتراحه .

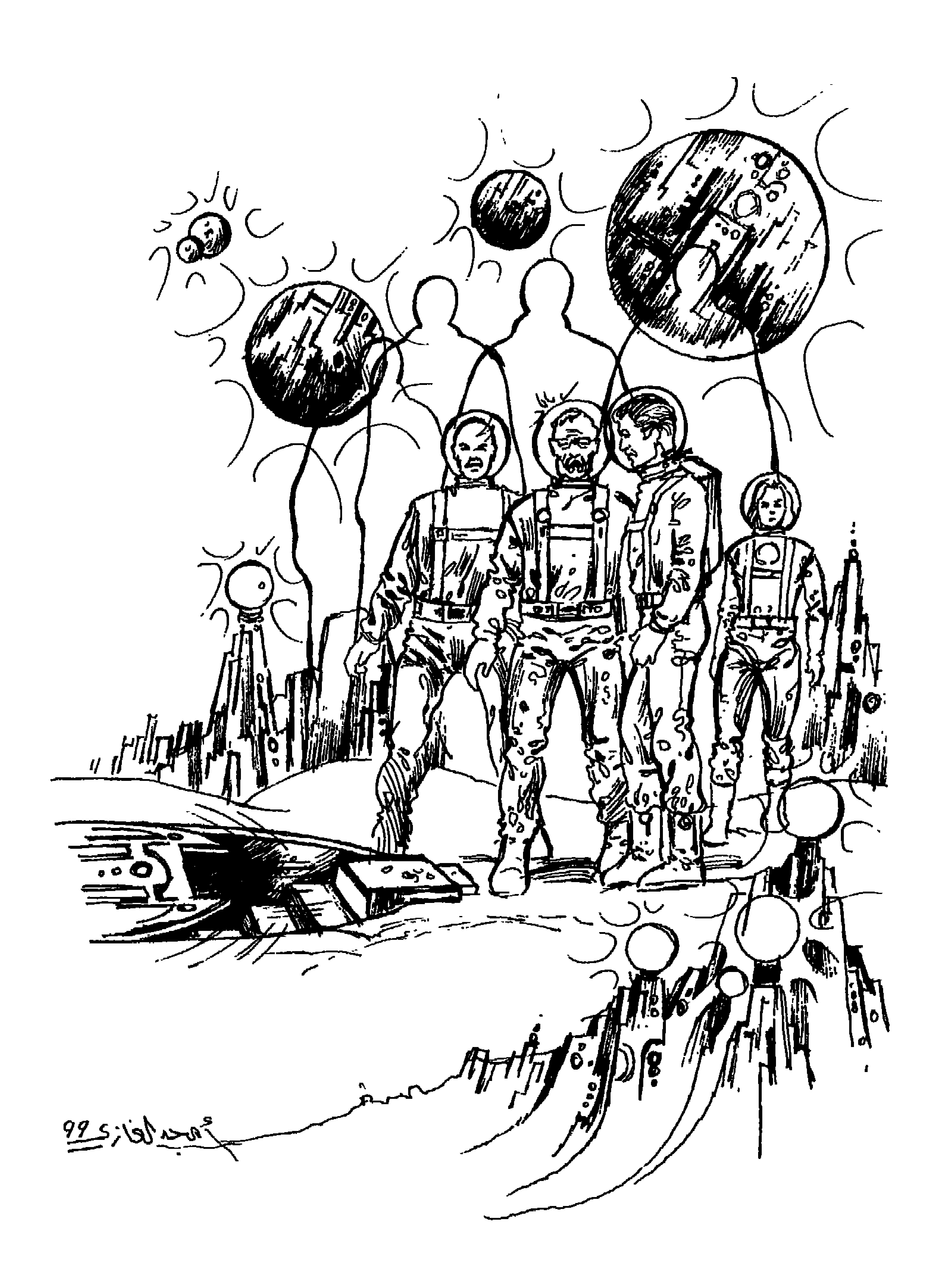
في السنين السحيقة ، عاش فوق كوكبنا أناس شابهوكم في كل تناقضاتهم وعواطفهم وانفعالاتهم الأنانية المتقوقعة ، ولكن التطور

الذي طرأ على عقول أبنائهم وأحفادهم ، مكنهم من أن يبدؤوا في صنع هذه الحضارة التي خلبت ألبابكم .

قبل أن تصل المدخرة الطبيـة ، كنت أقرأ أفكارك ومشـاعرك ، وأنت تفكر بـالـزوجـة ، أكبرت فيـك هـذه الرقـة ، التي هي من مقومات الإنسان القادر على إحداث الطفرات في مراحل حياته ، لـذا أحس أن من واجبي إقناعك ، بضرورة البقاء بيننا .

☆ ☆ ☆

تمددت على حشية طرية ، وبـدأت أستعيـد بعض الحـوادث الخرافيـة التي جرت لي ، انطـلاقي من الأرض مـع رفـاقي ، اختراق المـذنب ، السرعـة فوق الضوئيـة ، الكوكب الفوسفـوري ، الكائنـات المتفـوقـة ، هـذه الحضـارة الفـذة التي فـاقت جميع مـا تتصـوره من حضارات العوالم البعيدة .



الفصل الثالث

يسمونها موجه الحس

كنا بين مذهول وحالم وخـائف ، تتوارد في رؤوسنـا أسئلـة أكثر من أن تحصى ، أحقاً تمكنا بآلـة تصوير (كاميرا) سحريـة من رؤيـة أنـاس يبعـدون عنـا عشر سنـوات ضـوئيـة ، وكم كانت سرعـة أمـواج الرؤية ؟

لقد اكتشفنا شيئاً خارقاً في هذا الكوكب الفذ . الطاقة الساميـة عنـد هـذه الكائنـات العـاقلـة تستطيع التحكم بكل مـا يمثل المستحيل عندنا .

إلى متى سنظـل مقيـدين في هــذا الكـوكب المنزوي في ركن من أركان مجرتنا ، وإلام الانتظار ؟

ألن نعتاد على هذه الحياة الخرافية التي تشدنا بحبال لا تنقطع نحو مغريات لم نحلم يوماً بالوصول إليها ؟

غامت عيناي بالدموع ، بدأت أتقلب في مرقـدي ، وقـد اعترتني نـوبـة من البكاء الصـامت ، خرجت من الغرفـة السحريـة ، وانفلت

منطلقاً إلى حيث تتجمع الشرائط المعدنية ، حيث يتجسد سكان الكوكب بصورنا ، نحادثهم ، نناقشهم ، نطلب منهم العون .

وبدأت أصرخ محاولاً تنبيههم إلى ما وصلت إليه حالتي من سوء .

استطالت الأسلاك ومالت إلى الأسفل ، وانبعثت عدة شرارات قبل أن أجد الكهل الفوسفوري يقترب مني وهو يبتسم بحنان :

ـ اهدأ قليلاً ، لو رضيت بالكمية المناسبة من الإكسير ، لما وصلت حالتك إلى هذه الدرجة من السوء ، كنت ستنقلب إلى إنسان طيع بعيد عن الانفعال بطبعك الهادئ الرزين ، يمكنك إصدار قرارك النهائي .

تلقينا تقريراً من جماعتنا المنطلقة في رحاب الكون ، يصف كوكبكم وصفاً دقيقاً كاملاً ، سنحاول من خلال هذا التقرير نقلكم إلى رحابه ، بعد أن تبدأ المدخرة الرياضية ، والمدخرات العلمية الأخرى في رسم الاتجاه بدقة ، للوصول إليه دون أي متاعب .

ـ يا إلهي .. أتنوون إعادتنا إليه ؟

ـ مسألة العودة سنتحادث بشأنها فيما بعد ، أجهزتنا العلمية المتطورة ستنقلكم إلى جوه .

ـ تعني أن أجهزتكم الخاصة ومناظيركم ستقربه منا ؟

ـ بكل طاقاتنا سنحاول التحكم بالصور والأحداث وقراءتها .

☆ ☆ ☆

كم أنا متشوّق لأصافح هذا الكوكب العزيز ببصري ، الكوكب الذي مزقني فراقه ، كانت لحظة جنون ، حين رضيت بتلك المغامرة التي توشك أن تنفينا عنه إلى الأبد .

خطر لي خاطر فجائي أقلق راحتي وسمرني مشدوهاً ، أمام جهاز إيقاظ الذاكرة ، كم مضى من الزمن الأرضي على رحلتنا ؟ ليكن الله في عوني ، عشر سنوات على الأقل ، وعند العودة ـ هذا إذا استطعت العودة ـ عشر سنوات أخرى .

أي إنني سأجد زوجتي في الثانية والأربعين وابنتي في الثالثة والعشرين ، كم سيكون العالم متغيراً لي ؟

لا أزال أتخيلها بقامتها الهيفاء ووجهها الوردي ، تطوف عالمي فتمسح آلامي وأحزاني .

☆ ☆ ☆

اقتربت اللحظة الخرافية ، تعلقت أبصارنا بالغيوم السابحة في سماء الأرض ، المنظر نفسه الذي رأيناه ونحن نغادر الأرض قبل عشر

سنوات ، كرات صغيرة لامعة تدور في فلك الأرض ، إنها الأقمار الصناعية ، وما هذه الأعداد الهائلة منها ؟ يبدو أن جو الأرض مشحون بالخطر ، أخطر حرب في عالم الأرض بين الفئات الغنية البغيضة التي تكدس السلاح في سبيل تنفيذ مآربها ضمن أنظمة استعباد رأسمالية ؟ أم حرب كونية بين مجانين أهل الأرض وبين قوات غازية من عوالم أخرى .

إننا نتوغل في جو الأرض تبدو لنا الخطوط الملونة والتعاريج ، ولا تزال السحب تمنع أبصارنا من التوغل في العمق ، اجتازت العدسة السحرية طيات الغيوم بدت لنا صحراء الجزيرة العربية الباهتة ، انفلتت العدسة تقرب رقعة الصحراء ، بدت لنا محطتنا العلمية في قلبها متغيرة تماماً ، الأبراج ، الخمائل العتيقة ، المنظر نفسه ولكنه بدا لنا كلوحة تقادم عهدها فتحولت ألوانها وبهتت .

أهكذا يفعل الزمن .

أسبوعان وثلاث عشرة ساعة مرت علينا حسب ساعاتنا الأرضية المشدودة إلى معاصمنا ، بينما مر على الأرض ما يزيد عن عشر سنوات ، أي عالم غريب هذا الذي حول حياتنا في هذا الاتجاه ؟.

بدأت الكاميرا السحرية تتجول في المركز ، اخترقته بشفافية كشفافية الضوء ، عرفنا رفاقنا الذين قضينا بصحبتهم أمتع الليالي ،

وعشنا لحظات الطموح والأمل بالمستقبل المعطاء لأمتنا ، التقاطيع والملامح نفسها ، ولكن بتجاعيد خفيفة ، يد الزمن خطت فوق وجوههم خطوطها المحفورة ، وأثقلت أجفانهم وحنت ظهورهم .

بدأت الكاميرا السحرية تلوب في المحطة ، تستعرض أقسامها ، تفاصيلها ، تجربتها الغنية بالمعرفة والخبرة خلال عشر سنوات ، استوقفتنا صورة ضخمة معلقة في صدر قاعة الفلك الرئيسية ، كانت صورة تجمعنا ، نحن طاقم السفينة الفضائية (ابن حيان ١٦ع) كتبت تحتها عبارات لم نستطع تمييزها ، لا شك أنها تؤرخ لسفينتنا وترثي طاقمها .

فوق كوكب تحكمه كائنات فذة متطورة ، ذات طاقات هائلة خلاقة مبدعة ، من المستحيل تصوير ما وصلت إليه من علم ومعرفة ، نجوب بأعيننا عالمنا الأرضي الذي تفصلنا عنه مسافات شاسعة تزيد عن (٦٠) مليون مليون ميل .

من فوق الكوكب الفوسفوري ، نحدق بأعيننا التي اتسعت حدقاتها بهذا العالم العجيب ونحن لا نصدق حتى الآن أننا نعيش فعلاً ، إذ إن النظريات العلمية التي حطمناها في رحلتنا زادتنا حيرة وقلقاً ، أمن المعقول أن تصل سرعة المادة إلى ما فوق سرعة الضوء ؟ ولكن

أليس هذا ما رأيناه فعلاً ، ونحن ننفلت خارج المذنب وآلاف النيازك الصغيرة تقرعنا ابتعدت آلة التصوير (الكاميرا) المجسمة عن المحطة الفضائية ، انتقلت عبر الصحراء المترامية الأطراف لتمسح البلدان الآسيوية ، ولتدور حول الأرض متغلغلة في أعماق المحيطات ، لتصل بشفافيتها المخيفة إلى الأمريكيتين ، فالمناطق القطبية فأوربا فإفريقيا .

أرجوكم حولوها إلى منزلي ، جرفني الشوق إلى أحبائي ، أريد أن أتملى ما يحدث هناك كنت على وشك النطق بهذه الجمل ، وانعصر قلبي شوقاً ، عندما تحولت عين الكاميرا السحرية صوب مدينتي قبل أن تنفلت من فمي كلمة ، اقتربت من حينا القديم ، دارت بين البيوت صافحت نظراتي ملامح الوجوه السمحة الحبيبة ، انطلقت تمسح الشارع حتى توقفت أمام باب المنزل ، تغلغلت ببطء ، ازداد وجيب قلبي ، يا إلهي إنني أحلم أمن الممكن أن أكون في يقظه ؟ شابة صغيرة تجلس خلف منضدة رصت بالكتب والخرائط تزيح خصلات شعرها بين الفينة والفينة عن جبينها ، يبدو أنها غارقة في أفكارها ، من تكون ؟ أهي زوجتي ؟ لا مطلقاً إنها تشبهها إلى حد بعيد ، آه نسيت أن ابنتي قد مرت عليها سنوات طويلة أصبحت بعدها صبية حسناء . أهي ابنتي إذن ؟ آه أيها القلب المسحوق بالعذاب ، حبيبتي الصغيرة خلال زمن قصير تحولت إلى صبية ناضجة تتعشقها العين ،

بـدأت أتـأملهـا أمسـح بنظراتي البعيـدة وجهها ، شعرهـا ، ظهرهـا المنتصب شباباً وفتوة ، أين أمك يا صغيرتي ؟

أهي هذه المرأة الناضجة الغـارقـة في قراءة كتـابهـا الضخم تسوي بين الفينة والفينة نظاراتها على أرنبة أنفها ؟

زوجتي الحبيبة كبرت قليلاً ولكنها ازدادت جمـالاً وإشراقـاً ، في عينيها وجوم واستغراق وعلى صفحة وجهها المدور تقرأ حزنـاً عميقـاً ، تمكنت من رؤيته من هذه المسافة الشاسعـة بـدأت أتفحصهـا أتفحص تقاسيمها التي أذابتني شوقاً وحزناً .

ومن خـلال هـذا البعـد السحيـق تمكنت من تبين صـورة فوتوغرافية لي في صـدر البيت ، ألم تنسي بعـد يـا حبيبتي هـذا الزوج الغـائب البعيـد ، على الرغم من هـذه السنين الطـويلـة من الحـزن والأسى ؟ كيف طـاوعتني نفسي أن أفـارقـك وابنتي ؟ ليتني لم أنجرف وأبتعد عنكما ، يا لقلبي القاسي كيف طاوعني ؟

☆ ☆ ☆

بدأت العدسة السحرية تجوب بيتنا ، محتوياته ، أشياءه ، غرفـة النـوم ، غرفـة الجلـوس ، المكتبـة الضخمـة ، إنهـا تنفلت من منزلي ، وتبدأ بالبعد عن مدينتي ، صوب الغيوم السابحة في الفضاء لتبتعـد عن

كرتنـا الأرضيـة شيئـاً فشيئـاً ، ولتختفي الصـور بسرعــة عجيبــة ، ويسود الظـلام هـذا الركن الـذي نجلس فيـه ، قبـل أن ينبعث نـور ساطع من أحـد الجـدران ، مصحوب بـدخـان معطر أيقظنـا من حلمٍ كدنا ننسى فيه أنفسنا .

☆ ☆ ☆

كنّا بين مذهول وحالم ومتحفز ، تتوارد في أذهاننا أسئلة كثيرة ، أحقاً تمكنا بآلة تصوير (كاميرا) سحريـة استنبطتهـا هـذه الكائنـات المتطورة من الانتقال لمسافات هائلة في هذا الكون العميق الاتسـاع . أي أمواج مادية يمكن أن تنتقل بهذه السرعات الخرافيـة ، يبـدو أننـا اكتشفنا شيئاً خارقاً ، فجّر الطاقات السـاميـة على شكل أمواج كبيرة السرعـة . شيء مـا يرهق ذاكرتي ، يتعبني ، وأنـا أحـاول أن أعثر على أجوبـة أكبر من أن يستوعبهـا رأسي الصغير . لعل مـا رأينـاه ليس إلا رؤى وتهيؤات نسجتها عقولنـا المتعبـة ، وشـاركت هـذه الكائنـات في صنعها وإنطاق صورها .

آه من هذا العذاب الجـديـد الـذي جعلني أتخبـط في بحر الضيـاع كأنني أعيش حلماً طويلاً حرك مشاعري بذكريات عذبة .

كانت جلسة عـاصفـة جمعتنـا ـ نحن طـاقم السفينـة (ابن حيـان ١٦ ـ ع) في إحــدى الحجرات المستــديرة ، لم يصــدق معظمنــا أن

ما جرى حقيقة ، وكيف له أن يصدق ما يمثل عنده المستحيل ؟

غرق الكهل قائد رحلتنا في مقعده وهو يحدق فينا بعمق :

ـ لم أحلم في حياتي أنني سأصل إلى هذا اليوم الذي جعل أحلامنا الأسطورية تتجسد حقيقة متوهجة كشمس هذا الكوكب ؛ نبعد عن كوكبنا عشر سنوات ضوئية ، نقطعها في زمن لا يتجاوز الأسبوعين ! ونخترق بأبصارنا المتعبة هذه المسافات الشاسعة ، لنراقب أناساً يتحركون في أعماق الكون ، كأننا نعيش بين ظهرانيهم .

ـ ألا يمكن يا سيدي أن تكون هذه الكائنات قد أعطتنا عقاراً من مادة غامضة ، جعلتنا ننغمس في هذا الحلم العجيب الذي لا تقبل بوجوده أرقى النظريات في كوكبنا ؟

ـ لا .. أبداً ، أنا أعتقد أن كل ما رأيناه هو حقيقة ساطعة ، أضاءت عقولنا المتعبة . كيف لهذه الكائنات ذات الطاقات المدهشة أن توجد حولنا جواً نتنفس فيه ، ونتسامر ونتحدث ونتناول عقاراتنا الأرضية ، مع أن أجسادنا لا تتحمل الفوسفور .

بل ما هذا السطح الذي يشع ضياءً ، وهذه الشمس اللامعة والأقمار والغلالات الرقيقة الملونة التي تدور كالسوار حول الكوكب .

صمت هنيهة ، قبل أن يكمل بصوت متهدج وهو يتملى بنظراته وجوهنا .

ـ أصدقائي ، إخوتي ، أبنائي ، اعذروني واعذروا جنوني ، كنت قد تحادثت معكم حول رغبتي بالبقاء هنا ، وأجلنا عندها الموضوع ، لقد صممت بعد صراع عنيف مع نفسي أن أبقى على هذا الكوكب ، علني أتملى هذا الإبداع والتفوق العلمي بجميع أحاسيسي ومشاعري ، لا تقولوا شيئاً أرجوكم ، هو قراري الأخير الذي لا رجعة فيه .

أغرقتني هذه الكلمات بالتفكير والحزن ، وبدأت أتأمل الكهل المتعب المنزوي خلف مكتب زجاجي رقيق ، وكأنني أتأمل جثة حبيبة ، تجهز للدفن .

☆ ☆ ☆

في قاعة فسيحة ، مستديرة الجدران اتخذنا أماكننا قرب الأجهزة التلفزيونية ، ننتظر حضور قائد رحلتنا الكهل ، الذي طالت غيبته عنا ، دون أن نتمكن من الاطلاع على مدى جديته في البقاء على سطح هذا الكوكب .

فجأة ومض أحد الأجهزة بسلسلة من المنحنيات الجيبية وسطعت شاشته حتى كادت تبهر أبصارنا ، ثم ظهر لنا الوجه المألوف لقائد رحلتنا أصفر ، تشوب صفرته حمرة خفيفة ، تفرس الكهل في وجوهنا ، كأنه يرانا حقيقة .

ـ أصدقائي ، ثمة أشياء كثيرة حدثت لي ، لا أريد أن أفاجئكم بها الآن ، ستدهشون إن قلت لكم إنني أراكم وأسمع وجيب قلوبكم ، عبر هذه الشاشة السحرية ، دون أن يساعدني أي من أصدقائي الجدد ، مهما تكن حالات الاستغراب التي يمكن أن تعتريكم فسأستعرض لكم انطباعاتي إبان التحول الكبير الذي طرأ علي ، بحيث تتوضح لكم أمور كثيرة غائبة حتماً عن فرضياتكم والاحتمالات التي تضعونها حولها .

كنا نتخيل عندما انتقلنا إلى جو الأرض ، أن هناك آلة تصوير سحرية تنتقل وتجوب الفضاء ، وتقرب لنا ما يحدث على الأرض ، ولكن الذي حدث حقيقة هو أن حواسنا كلها انتقلت إلى هناك ، وظلت أجسامنا خلال فترة الرحلة هنا حية تنبض وتقوم بوظائفها بشكل آلي .

استطاعت كائنات هذا الكوكب الفذ أن تنقل حواسنا وذكرياتنا وطاقاتنا الفعلية ، وعواطفنا على موجة يسمونها هنا (موجة الحس) ، وهي موجة لا مادية ، سرعة انتقالها عبر الكون خارقة لا يمكن تصورها ، عاشت أحاسيسنا حالما انتقلنا إلى هناك وسط البيئة الأرضية حول رفاقنا وأحبائنا .

التقت الأحاسيس كلها في محطتنا الأرضية في الصحراء العربية ، ولكنها تفرقت بعد ذلك ، أصبحت موزعة في مناطق عديدة من

الأرض ومن الفضاء الخارجي ، بعضنا اشتاق للزوجة والابنة فانتقلت موجة أحاسيسه إلى منزله في مدينته من هذا البعد السحيق ، وبعضنا رافقت موجة أحاسيسه قمراً صناعياً يدور حول الأرض ، وبعضنا الآخر تغلغلت موجته إلى أعماق المحيطات أو حول كواكب بعيدة أو في مجرات سحيقة البعد ، المهم أن كلاًّ منا انتقل بموجة أحاسيسه إلى مكان ما من هذا الكون .

ظل فكري مشغولاً بإيجاد تفسير لهذه الظاهرة العلمية الخارقة ، التي أوهمتنا أننا ننتقل في الكون عبر عدسة كاميرا سحرية خرافية ، تقرب لنا المسافات ، ولم أستطع بعد طول تمحيص ودراسة أن أهتدي إلى الجواب الذي أقض مضجعي ، وحرمني من الهدوء والاستقرار والتفكير المركز ، ثم توجهت إلى مدخرة الفكر الرياضي برفقة أحد الكائنات الفذة ، حيث اطلعت هناك على أمور لم أكن أحلم بتصورها .

علمت أن قصر مدة الانتقال عبر (موجة الحس) كان سببه عدم قدرة الجسم البشري على التخلي عن حواسه إلا لمدة محدودة ، إذا تجاوزها تلاشت أحاسيسه في أي مكان كانت فيه ، ومات جسده أيضاً .. أي إن تجاوز المدة المحدّدة يهلك الجسم البشري .

إلا أن ما يطيل المدة ، تناول إكسير خاص تصنعه هذه الكائنات

الفذة إذا تناول الإنسان منه كمية كبيرة امتنع عنه الموت ، وتحولت مادته تدريجياً إلى طاقة فائقة ، تمكنه من التعامل مع موجة الحس ، والوصول إلى أرقام قياسية هائلة في الانتقال عبر هذا الكون الواسع الفسيح الأرجاء .

إن كائنات هذا الكوكب الذي نعيش الآن فوقه ، قد وصلت إلى قمة الحضارة بفضل الروح الجماعية لديهم ، وتخلصهم من الميول الفردية التي كانت سائدة عندهم منذ عهد بعيد ، وصل تعدادهم الآن إلى مئة وستة مليارات كائن يعيشون أسرةً واحدة متعاونة في مجتمع تعاوني بلغ شأواً بعيداً في التطور .

نفوس مهذبة نقية لفظت الكراهية والحقد والأثرة ، ولم يبق إلا الحب غير المحدود المقرون بالعلم ، وصلت هذه الكائنات بقدراتها الفذة إلى مجرات بعيدة ، ودرست حركاتها ، وتكوين نجومها وكواكبها وأقمارها ، متعرضة لأخطار ، سنظل آلاف السنين غارقين في البحث المضني حتى نعرفها .

ما شهدته في هذا الكوكب أذهلني ، غمرني بفيض المعرفة الزاخر ، كنت في حياتي متعلقاً بالعلم إلى درجة الهوس ، ووجدتني في جو علمي خرافي ، دفعني دون أن أملك نفسي إلى تناول الإكسير .

إن ما وصلته هذه الكائنات من تطور شدني بجاذبية عجيبة إلى البقاء هنا واختيار هذا الطريق .

سأصف لكم شعوري منذ لحظة تناول الإكسير إلى الآن ، حالما تشبع جسدي بالسائل العجيب ، تنبهت ذاكرتي إلى جملة الحوادث التي عشتها ، وأخذت أستعرض في ذهني تفاصيلها وجزئياتها ، وأعلل أخطائي العلمية ، وأصلح معادلات رياضية معقدة ، وبدأت أفسر الظواهر الطبيعية وحركة الموجات والطيف الضوئي المضاعف ، وحركة أوج النجوم وتباعد المجرات ، وموت الأحياء ، بدأت أستعرض قوتي ، لقيت نفسي ذا قدرة خارقة مكنتني من التغلغل في مادة الكواكب والنجوم والسدم ، انحسر ارتباطي بعالم البشر ، صرت طاقة هائلة لم تتحول بعد تحولها اللانهائي ، تعلمون أن الفوسفور يؤثر في الخلايا ويفتك بها بشكله الطبيعي ، فكيف استطعت أن أنفذ فيه ، وأتغلغل بين طياته في هذا الكوكب أو شمسه الفوسفورية دون أن يؤثر في ؟ لقد أعطاني الإكسير ستاراً واقياً لكل ما من شأنه إتلاف خلاياي ، قبل أن يطرأ علي التحول الكبير ، الذي سيستغرق من عمري (١٥٠)عاماً من أعوام هذا الكوكب ، وذلك لوجود رغبة أكيدة في داخلي تسهل عملية التحول وتقصر من زمن الانفلات النهائي من قبضة الجسد .

آه يا أصدقائي ، كيف أصف لكم سعادتي بهذه الاكتشافات التي أتوصل إليها كل لحظة ، لعلكم تعذرون جنوني ومفارقتي إياكم ، فما أشهده من عظمة العقل المبدع ، يفوق سمواً كل ما حلمت به في الماضي ، مع إخوتي في محطة الصحراء العربية البعيدة في طرف المجرة ، كم ازداد حبي لكم ولنفوسكم الطيعة المغامرة ، وما يزيد عزائي هو أنني سأصل يوماً ما ، إلى الحد الذي يحولني إلى كائن ذي قدرة خارقة ، أتغلغل في ثنايا الكون مع بعثات الاستكشاف ، أزور الأرض أمسح قاراتها ومحيطاتها أدور بين سحبها ، أسمع الهمسات الدافئة والعبارات الشعرية المتدفقة حباً ، أعانق بأحاسيسي ، أولئك العمال المتعبين الذين يعودون إلى بيوتهم وأجسادهم تنفح عرقاً ، وأهمس في آذان الزراع أستحثهم على العمل المتواصل ، وأناغي البلابل المغردة والأطفال الصغار المحرومين من العطف .

آه يا أصدقائي ! مشاريع كثيرة ستتحول إلى حقيقة تغير لي مستقبلي غير المحدود عطاءً ودفئاً وحباً .

قبل أن أودعكم لاستلامي العمل الجديد الذي كلفني به أصدقائي الجدد ، وأنا في مرحلة التحول ، أرجو أن تنتبهوا جيداً إلى ما سأقوله لكم :

نحن يا أصدقائي تمنينا كثيراً ونحن في محطتنا العربية أن نصل

إلى معرفة ما خفي على الآخرين ، ويكون لنا في ذلك قصب السبق ، فكيف لو وصلتنا كل هذه المعارف دفعة واحدة ألا ترون معي الفارق الهائل ؟

☆ ☆ ☆

اهتزت العينان بحزن ، قبل أن يتلاشى بريقهما مع تلاشي الصورة ، ثم عادت إلى الظهور ، وقد تغير لون الكهل فأصبح وجهه قرمزياً بلون الدم ، ألقى علينا من جديد نظرة اختلفت عن سابقتها ، كانت مشبعة بالحزن .

بودي أيها الإخوة الأحباء أن أعانقكم وأبثكم حبي وحزني على فراقكم ، سامحوني ، لقد قضيت بينكم أخصب فترات حياتي وأجملها ، ربما اعترتني الآن حالة من الندم والخوف من المستقبل الحافل بالمفاجآت ، ومع ذلك فأنا مطمئن إلى هذه المخلوقات النقية الفذة ، إن استطعتم العودة إلى أرضنا فاذكروني دائماً .

اختفت الصورة هذه المرة إلى الأبد ، وغمرتنا حالة من الذهول والحزن ، وران علينا صمت ثقيل ، كنا خلاله نتبادل النظرات الحائرة القلقة ، ومالبثت بعض الكائنات الفوسفورية أن قطعته لدى دخولها مع الكهل الكبير السن الشبيه بقائد رحلتنا المختفي إلى الأبد .

قال الكهل الفوسفوري :

ـ جئنا نصحبكم في رحلة إلى توابع كوكبنا ، بعد أن عرفتم بعض أنظمتنا على سطح الكوكب الفوسفوري .

وما لبث أن أردف قائلاً :

ـ يغمر بعضكم تردد قاتل في الانضمام إلينا ، لن نرغمكم على ذلك ، لكم ملء الحرية في اختيار القرار المناسب ، ولكن يجب أن تزدادوا معرفة بنا ، ومن أراد منكم بعد ذلك العودة إلى الأرض فسنبذل المستحيل لإعادته سالماً . علماؤنا يعملون بكل طاقاتهم ومختلف فروع علومهم للحصول على أسهل الطرق العلمية في نقل الجسم المادي عبر الكون بأقل زمن ممكن .

أصدقائي ، نحن نفهم انفعالاتكم ونعذركم في حيرتكم وتخبطكم في الوصول إلى القرار النهائي ولا بأس من التروي .

لم يبد أي من أصدقائي موافقته على بدء الجولة إذ كانوا متعبين قلقين ، وكنت الوحيد الذي وافق عليها ، إذ كنت مصماً على العودة إلى الأرض ، مهما بلغت نسبة الخطر في رحلة العودة تلك .

قادني الكهل الفوسفوري إلى المحطة الكونية التي رقدت بهدوء فوق مساحة واسعة ، وقد ارتفعت هوائياتها عدة أمتار ، كانت شبيهة بالمحطة الكونية التي أوصلتنا إلى هذا الكوكب . مصعد من نوع

غريب هبط قربنا ، لنمتطيه ونرتفع كالسحاب إلى داخل المحطة ، حيث ضغط الكهل عدة أزرار ، لتندفع المحطة في الفضاء متجهة إلى (الوهج) أكبر الأقمار التي تدور حول الكوكب الفوسفوري وأبعدها عنه .

نظرت من الكوة الزجاجية أتأمل ما حولي وأنا أبصر الكوكب يبتعد رويداً رويداً وتتضح حلقاته الملونة ، كانت السماء بلون الليل الداكن ، ترصعها نجوم لامعة ، بدت كنقاط بيضاء على صفحة سوداء ، أحسست بالخوف والكآبة ، وتذكرت أن مثل هذه الحالة لازمتني لدقائق بعد ما فارقنا القمر في طريقنا إلى الزهرة .

قطع الكهل الفوسفوري أفكاري وهو يقول :

ـ انظر (الوهج) وتأمل النقطة المخضرة هناك .

ـ إنها تتسع وتمتد بشكل دائري ، ما السبب في ذلك ؟

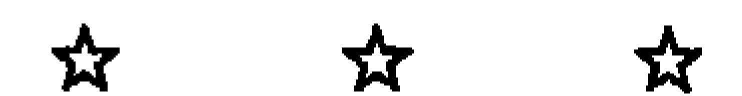
ـ إنها محطة الاستقبال التي سنحط فوقها بعد قليل .

امتدت الأبنية المادية لتهيئ لك جواً بإمكانك تقبله دون أي مفاجأة مربكة لتفكيرك .

☆ ☆ ☆

كان منظراً رائعاً شهدناه ونحن نهبط (الوهج) : سماء رمادية ،

تجللها غيوم شفافة حمراء ، تحركها هبات نشطة لرياح غامضة ، لم نشعر بحركتها من حولنا . وحين حطت المحطة الكونية فوق أرض محطة الاستقبال أظهرت لنا الشاشات الموزعة داخل المحطة الكونية مناظر رائعة ، لأطياف ملونة بدأت تتداخل وتتجسم على هيئة بشر يسعون ويتحركون بسرعات عجيبة حول المدخرات المنتشرة على سطح الوهج .



الفصل الرابع

الكوكب المحترق

كل العالم بدا لي صغيراً هزيلاً توضحت فيه الكراهيـة التي سببت هذه الكوارث ، فأجهش قلبي بالبكاء :

أهي الأرض التي أعود إليها لأجـدهـا ملطخـة بـالعـار ، يجللهـا السواد والانكسار والمذلة ، وتتشوه معالمها ، وأنا أدور فوقهـا بطـائرتي في ذلك الزمن الموغل في البعد ؟

ألم يتحرك في داخـل أولئـك النـاس ذرة من أسف وألم ، وهم يلقون بحقد أطناناً من الدمار والهول على هذا الكوكب الوادع .

المدى واسع يمتـد عبر أفق العينين ، وقـد انتثرت في الظلام المعتم أشكال سـديمية براقـة وأنـا أتمـدد في مقعـدي أرجـع بصري عبر الكـوة الواسعة المصمتـة بزجـاج صلب ، وقـد طـافت في رأسي سحـابـات من القلق والخوف .

تمر بالمرء لحظات تمتزج فيها السعـادة بـالألم والخوف والغموض ، ويبدأ الخيال في التحليق ، ليخلصه من كل تلك المتـاعب الـذهنيـة . كنت أمر بتلك اللحظات وأنا أمد بصري عبر الكون الفسيح والسفينة

تنطلق بسرعتها الخيالية ، ولست أدري ما الذي جعلني أسهو عما أنا فيه ويسرح بي الخيال في نقلة مفاجئة .

☆ ☆ ☆

الساعات تمر كالثواني ، اللحظات الحرجة تعتمل في نفس المرء ، والأرض مفلطحة تسبح في عباب الفضاء ، وأنا كالذاهل أحتوي الأشياء ، أتدفق بالعطاء بلا حدود ، وذهني موزع بين الصلابة والميوعة ، كل شيء مرهون بلحظة غادرة تقتنص منا السعادة ، والباحث عن السعادة ليس مثل من يعيش فيها . أفكار كثيرة مشحونة بالأسى والترقب ، بدأت تنتابني وأنا أسبح في مركبتي بين الأثير ، كل شيء مرهون بلحظة ، العمر كله ، الفكر كله والزمن ينسج من الأشياء البسيطة عبراً ومفاجآت ، ويلتهم كل شيء ، حتى الأماني والآمال ، ولا تبقى سوى الظلمة الأبدية ، نرسم باللامبالاة كل شيء ، وتسفي الرياح كل الرمل الذي رسمنا فوقه ، ونظل كالغرقى في بحر هائج الموج ، ونحن نبتلع المياه شيئاً فشيئاً ، ونشرف على الاختناق ، لا نزال نتمسك بجمل خاصة ، نرددها يومياً ، تغني أحياناً عن حكاية طويلة .

آه ... أنا الضعيف دائماً ، أتأمل الدنيا بهوس العاشق ، والحبيبة بعيدة عني تفصلها ملايين الأميال ، والزمن ينسج خيوط المستقبل

المليء بالمفاجأة ، وكل شيء إلى زوال ، حتى هذا العالم المتحرك المضطرم .

آه أيها الغموض القادم في لحظة قصيرة ، نجتر خلالها الذكرى ، ونحلم ويحلم القادمون بزمن جديد كله رفاهية وطمأنينة .

☆ ☆ ☆

ـ انتبه ما هذه الأجسام اللامعة المحلّقة في سماء كوكبكم ؟

ـ آه .. إنها الأقمار الصناعية .

ـ ولماذا هي كثيرة العدد إلى هذه الدرجة ؟

ـ لا أدري ، ربما كان السبب ، تمكن معظم الدول من إطلاقها لأغراض عسكرية أو للبحث العلمي .

ـ إن جو كوكبكم تسوده الغرابة ، فالزوابع المغناطيسية فيه شديدة التغير والارتداد .

ـ يا إلهي ما هذا ؟ الأرض مغطاة بسحب كثيفة ، يخيل لي أننا أضعنا طريقنا وأننا في سبيل الهبوط على سطح كوكب الزهرة .

ـ مستحيل أجهزتنا العلمية لا يمكن أن تخطئ ، ربما حدث لكوكبكم كارثة ، لو وقع في مجال إحدى الزوابع الفضائية .

ـ زوابع فضائية ؟

ـ فتات من الكواكب المنفجرة تنتشر على مسافات كونية شاسعة بفعل جاذبية النجوم والكواكب .

ـ تقصد المذنبات .

ـ لا . أجسام أشد قساوة من المذنبات .

☆ ☆ ☆

بلغ الانفعال ذروته ، بدأت أتأمل الأرض التي عاشت في أحلامي طوال الشهور المنصرمة ، وأنا أرتجف من الانفعال .

كانت كلمات الكائن الفوسفوري قد تركت آثارها في نفسي ، وشوهت الخيالات التي ارتسمت في ذهني عن الأرض ، الخيالات الرومانسية التي لم تغذِّني بسوى الحب والقداسة ، وتركت كل ما يملأ العالم الأرضي من شرور بعيداً عن مخيلتي .

بدأت معالم الأرض تتضح ، وبدأت محطتنا في الدوران حولها ، وأنا في خضم انفعالاتي ، وفجأة أخبرني الكائن الفوسفوري أن جهاز المتابعة الراداري ، يئز أزيزاً متواصلاً ، وأن هذا يعني اضطراباً غريباً يسود جو الأرض .

ـ لعل الجهاز لا يعمل جيداً .

ـ ألا تثق بأجهزتنا حتى الآن ؟ إنها من الدقة بحيث يستحيل وضع احتمال خطأ ، واحد من المليون .

ـ وما السبب إذن في هذا الأزيز المتواصل ؟

ـ التلفاز اللازري المضاعف أرانا مناظر غريبة لم نستطع فك طلاسمها بعد ، انظر سنقرب لك الأرض لتتأمل ما عليها بدقة .

بدأت آلة التصوير (الكاميرا) اللازرية تخترق الحجب ، الجو الضبابي السحب الكثيفة ، لتستقر فوق الأرض وتمسح تفاصيلها ومعالمها .

حدقت في هذه المناظر البائسة المقيتة غير مصدق ، مستحيل أن تكون هذه أرضنا التي عذبنا البعد عنها ، أشجار يابسة محترقة ، حفر ضخمة ملأت بعض المناطق التي يوحي منظرها بأنها قصفت بأعتى آلات الدمار ، قرية ممسوحة تدل عليها الأنقاض والكتل المفتتة المتناثرة . أخذت في تحريك المنظار أتملى الأرض المشوهة المعالم ، الماء يتفجر هنا ويغمر بعض المناطق ، كتل سوداء من الأشجار المحروقة هناك ، مدينة أخرى منطوية ترقد فوق أنقاضها ، مناظر بائسة تفتت الصخر تملأ مد البصر ، لم أستطع متابعتها ، أي كارثة أصابت كوكبنا الوادع ، أهي كارثة خارجية ، أم من صنع البشر ؟

ـ أرجوك حاول بأجهزتك المتطورة أن تفسر لي ما حدث للأرض ؟

- لحظات وأعطيك النتيجة ، سندور بالمحطة حتى نتوصل لمعرفة كل الأسرار ، قبل أن نهبط في النقطة نفسها ، التي حددت خط طولها وخط عرضها .

كنت أرتجف مقروراً من الخوف ، وعدت أرمق الصور من التلفاز اللازري لأشهد عالماً من الدمار فاق كل تصور ، جبال صلبة راسخة فتحتها أنفاق الانفجارات ، غابات بأكملها احترقت وتشوهت معالمها ، مدن بكاملها مسحت عن وجه الأرض ، أشلاء مبعثرة مشوهة ، قربت المنظار اللازري أتأمل الأرض عن كثب .

مخلوقات شوهاء تتحرك حركات غير منتظمة ، حيوانات مبعثرة تتحرك بذهول ، نساء ورجال يتجمعون في مناطق عديدة تنطق أعينهم بالذعر ، يحملون الأطفال والحاجيات ويتجهون عشوائياً نحو اللاهدف ، وجوه تحمل أعمق المآسي ، أطفال شعورهم بيض ، شوهت الكارثة ملامحهم البريئة .

قطع الكائن الفوسفوري هذه التأملات البائسة ليقول :

- إنها حرب ذرية دمرت بأسلحتها الفتاكة مناطق هائلة المساحة .

- حرب ذرية ؟ يا إلهي بعد كل هذا التطور في مجال الفتك والتدمير ، لا ريب في أن الكارثة أكبر بكثير مما نتصورها .

ـ وماذا قررت ؟

ـ أهبطني إلى النقطة نفسها التي عينتها لك .

ـ قد تؤثر فيك الأشعة .

ـ لا فرق عندي ، أريد أن أرى ما حدث لعالمي الصغير الذي عشت فيه سنواتي الطويلة .

ـ حسناً سنحقنك بإكسير يحميك من فتك الأشعة ، وسنرافقك في غدوك ورواحك حتى تتخذ القرار المناسب ، بالبقاء هنا ، أو العودة معنا .

هبطت بنا المحطة في منطقة مدمرة تدميراً شاملاً ، كل العالم بدا لي صغيراً هزيلاً توضحت فيه الكراهية والحقد ، فأجهش قلبي بالبكاء . أهي الأرض التي أعود إليها لأشهدها ملطخة بالعار ، يجللها السواد والانكسار ، وتتشوه معالمها العذبة التي عشت لحظات من الحلم وأنا أدور فوقها بطائرتي في ذلك الزمن الموغل في البعد ، ألم يتحرك في داخل أولئك الناس ذرة من أسف وألم ، وهم يلقون بحقد ، أطناناً من الدمار والهول على هذا الكوكب الوادع .

شغلتني المشاهد البشعة عن المهمة التي أنا في سبيلها ، ولم أنتبه إلا لصوت محدثي الكائن الفوسفوري الذي يرافقني ، الكائن القادم من كوكب الحضارة والأخلاق والسلام ، كان يهمس لي بصوته العذب :

ـ لم أكن أتصور أن كوكبكم تتحكم فيه نفوس وضيعة إلى ذلك الدرك ؟ في تاريخنا السحيق حدثت حروب بيننا ، لكنها لم تكن بالغة القسوة ، وكيف تضعون العلم بكل إمكاناته الهائلة بين أيدي طغاة لا يلقون بالاً إلى العرف والضمير .

ـ وبماذا يمكنني الرد ؟ أنا عاجز ، ضعيف مقهور ، تغمرني أحاسيس الشعور بعار أهل كوكبي .

ـ استكمل المخطط الذي بدأنا في تنفيذه ؟

ـ نعم سوف أبحث عن أهلي ، وإن لم أكن واثقاً من بقائهم أحياء .

☆ ☆ ☆

بدأت رحلتي وأنا مشحون بالأسى والتوتر ، كان ما فاجأني منذ البداية ، انعدام المعالم الواضحة للطريق التي سأسلكها ، صادفت وأنا أشق الجو بعربتي الطائرة القريبة من الأرض ، كائنات مشوهة ، ترمقني برعب ، ما لبثت أن اختفت في الشقوق المنتشرة بين الصخور . آه أيها الزمن المرعب ، كم مر من وقت على الأرض ، وهذه الكائنات المشوهة المتحركة فوق السفوح والأودية والمغاور ، حركات متعثرة بطيئة ، يطل من عيونها الشاخصة الذعر والرعب الهائل .

وأين أجد أهلي ، وأنا لا أعلم شيئاً عنهم بعد هذه السنوات

الطويلة ؟ لعل امرأتي وابنتي في مكان ما من هذا العالم ، لا أستطيع تحديده ، بعد أن تغير شكل الأرض من جراء هذه الحرب الذرية المرعبة التي غيرت معالمها ، أو ربما أصابها الهول المخيف النابت على الأرض المشوهة الجدباء .

وجدت في رفيق رحلتي العون وقد قرأ أفكاري بحذافيرها ، وتمكن بجهازه المتطور الموضوع على صدره من أن يجسد شكل زوجتي وابنتي منذ أن رأيتها خلال انتقال حواسي على موجة (الحس) قبل زمن لا أستطيع تحديده .

بلحظات قصيرة كنت أقطع الطريق الترابية الرطبة خلف هضبة عالية ، وأنا أتابع صعودي فوق سفحها ، الأرض ملأتها الحفر والطريق الصاعدة تزداد وعورة ، قلبي ينبض بحزن وإلى جواري رفيق رحلتي الصامت الذي لا أسمع لوقع خطواته صدىً ، كنا قد تركنا المحطة الكونية في حفرة بعد أن مهدنا قاعها ووضعنا فوقها بعض الأغصان المحروقة ، ولم يكن دليلي في المسير سوى هذا الكائن المتطور ، يقود خطواتي دون أن أشعر ، وأنا أتبادل معه النظرات الصامتة ، لكأنه أحس بمدى فجيعتي بالكوكب الذي طالما حلمت به ، وأنا بعيد عنه سنوات ضوئية مديدة . وصلنا أعلى الهضبة فرأينا جموعاً محتشدة حول شجرة جافة ، لم يتبق منها سوى جذع صلب محترق ، وإلى القرب من الجمع أنقاض منتشرة على سفح واسع وحين مددت

بصري أبصرت مدينة كاملة مقوضة مـدمرة ، ومن هؤلاء ؟ أهم سكان هذه المدينة التعسـة ؟ اقتربت منهم ورفيقي فرمقتنـا أعينهم برعب ، وأوشكوا أن ينسحبوا لولا أن همهم أحدهم بكلمات غير مفهومـة ، ونحن على بعـد مئتي متر ، ثم اقترب منـا بخطـوات متعثرة ، تـأملت الشجرة المحترقة فـأبصرت حقيقـة زادتني تفجّعـاً ، جثث لكتل آدميـة مشوهـة متجمعة ، حولها تشكل كومـة ارتفـاعهـا نحو المترين والنـاس يحملون التراب بأكياس خرقاء ملطخة بسوائل سوداء .

تكلمت بلغتي العربية المتعبة مع الكائن المقترب :

ـ من أنتم ؟

شخص بصره ، وظهر وجهه ، وقد أصبح على بعد أمتار بتشويهه المريع ، وغمغم باستغراب ، كأنه لم يفهمني ، قائلاً :

ـ ونحن نسـأل أيضـاً : من أنتما أيهـا الكائنـان اللـذان لم تلطخهما المأساة بعد ؟

ـ نحن بشر مثلكم فارقنا أرضنـا قبل سنين بعيـدة ، وعـدنـا إليهـا لنفاجأ بهذا الركام من الدمار .

ـ هذه هي مدينة (ألفا) أصيبت بذبول الكارثـة ، ونحن سكانهـا ممن ظلوا على قيد الحياة .

ـ نظرت إلى رفيقي غير مصـدق ، لقـد استخـدم هـذا الكائن

العجيب قدرته في اختصار الطريق إلى مدينتي ، المدينة التي أبحث عنها في ذاكرتي وأتخيلها على غير هذه الصورة .

ـ وفي أي عام نحن ؟

ـ لقد فقد الزمن عندنا مدلوله ، ولا ندري كم مر علينا من الوقت ، ونحن نحتجب في شقوق الأرض هرباً من الإشعاع الذري المتراكم ، عندما بدأت الحرب وبدأت أطنان القنابل الذرية والهيدروجينية المضاعفة تلقى هنا وهناك ، فتحدث الفناء والدمار ، انحدرنا تحت الأرض نحتمي ، وخيمت السحب فوق بعض المناطق ، سحب سوداء كثيفة حجبت نور الشمس ، وحجبت عنا الضوء ، وقد تعطلت جميع وسائل الطاقة ، وفقدنا الاتصال بأهلنا ، ومر الزمن ، ونحن نتغذى بالتراب الرطب من الأعماق الدافئة ، ونفق الكثيرون منا .

وعندما خرجنا بعد أن استطلع رفاقنا الأمر وتبينوا الهدوء وانقشاع السحب ، بدأنا نبحث في المدينة بين الأنقاض ، عن الجثث المحروقة المتفسخة لنحرقها بالقطران الذي حصلنا عليه من بقايا آبار النفط . وحتى يكون للقبور الجماعية شواهد واضحة ، اخترنا هياكل الأشجار الضخمة التي تحملت جذوعها القوية الانفجارات المتتابعة البعيدة ، نرمي حولها الجثث بانتظام ، ثم نرش فوقها القطران والتراب المحروق .

وإن سألتك عن بعض الناس ، هل يمكنك معرفتهم ؟

ـ هذا صعب يا سيدي ، الجثث غير واضحة المعالم ، وحتى ركام البيوت وأنقاضها اختلطت فيما بينها بطريقة عجيبة ، لم تمكننا من فرز الجثث ومعرفة أصحابها ، فقدت أهلي جميعهم يا سيدي ، حتى ابني الصغير وجدته هيكلاً متفحماً .

جثته ملقاة خارج البقعة التي حددت أنها منزلي عشرات الأمتار ، ولم أعرفه إلا من السلسلة التي التفت حول ذراعه .

انتبهت فجأة حولي ، كانت الجماعة المتحلقة حول الشجرة تقترب منا ، ونبهني رفيق رحلتي إلى الدمل الكبير الذي بدأ ينمو في يدي بسرعة بالغة ، بعد أن لمسني المخلوق الغريب الذي أحدّثه ، وعن طريق الأفكار أسر لي بأن أبتعد قليلاً عن الجماعة ، إذ يبدو أن مرضاً خطيراً يستشري بينهم ، يضرب الأعضاء السليمة ويشوهها .

بدأ الكائن الفوسفوري يحرك مؤشر الجهاز الموضوع على صدره ، وإذا بدمدمة غريبة بدأت تسمع في الجو ، ازداد صوتها ارتفاعاً ، إلى أن غدت هديراً أبعد المتجمهرين حولنا حيث التفوا حول بعضهم في رعب بالغ ، همست أستفسر من الكائن الفوسفوري ، عن سبب هذه الدمدمة فقال لي عن طريق تبادل الأفكار :

ـ بعض المصابين اقتربوا من المحطة الكونية ، وأزالوا الأغصان الجافة وهم يبحثون عن طعام يقتاتون به ، إذ كاد الجوع يبرح بهم ، وحتى يبتعدوا عنها البعد الكافي أصدرت هذه الدمدمة التي هي في الوقت نفسه تنبيهٌ للناس الموجودين حولنا ليبتعدوا قليلاً .

ـ ولكن الرعب أخذ بأفئدتهم ، انظر إلى هذه العيون الجزعة الخائفة .

فجأة انقطعت الدمدمة فصرخت بالكائن الذي كنت أتحدث معه :

ـ اقترب لا تخف .

لكنه ظل مسمّراً في مكانه .

ـ قلت لك لا تخف هذه الدمدمة تصدر عن جهاز منبه لا يؤذي أحداً .

ـ منبه ! وعلام ينبهكم ؟

ـ على أحوال الجو واضطراب الطقس ، يبدو أن موجة باردة توشك أن تعم المنطقة .

ـ أمتأكد من هذا القول ؟

ـ نعم .

- ياللبشرى السارة ستفعل هذه الموجة العجائب ، وتخفف من آلام المرضى .

تلفظت بما قلت دون أن أعي شيئاً منه ، إذ إنه عن طريق تبادل الأفكار مع الكائن الفوسفوري أسر لي بهذه الحقيقة العلمية التي اكتشفها بوساطة أجهزته المتطورة ، لكي أزيل الخوف الذي شرش في عيون تلك المخلوقات المشوهة .

بدأ المخلوق الذي تبادلت معه الحديث يبتسم بتكشيرة مرعبة ، وقد ظهر فمه الخالي من الأسنان والمليء بالدمل والقيح الذي يثير تقززاً يدفع إلى التقيؤ .

عاد إلي روعي خلال ثوان ، وقلبي ينفطر من الأسى ، وبدأت الذكريات تنفلت من قواقع الماضي ، تزيدني تعاسةً وألماً وأنا ألوب الأركان باحثاً عن أهلي الذين فقدتهم .



الفصل الخامس

زهرة بين الأنقاض

من الغربة نصوغ أحلامنا ، وقد عشناها بكل ذرة في كيانـنـا ، منذ أن فارقنا كوكبنا ، هربت منا السعادة ، طاردناها ، حاولنا الوصول إليها ، ولكنها ظلت بعيدة .

الزمن يلقي علينا شوائبه ، فنحاول الخلاص منها ، وما نكاد حتى تحط علينا شوائب جديدة ، نصارع حتى أنفسنا ونعيش مهزومين ، هزيمتنا أبدية وتعبنا أبدي ، وآهٍ أيها الزمن المجبول بالدم والعرق .

الهواء حار رطب ، والضوء يبهر العينين ، والمدى يسع الأفكار الموشومة بالألم ، سأرحل غداً رحلتي الأبدية ، رحلة العمر ... آهٍ أيها الزمن القاسي ، ماأشد إقتامه الماضي ، أصحو على الصوت الصارخ يلسع كالسوط ، وأنام على القذى في العين .

الأفكار سوداء ، ومن الكوابيس أصوغ الألم المبطن دموعاً أنتقم بها من دنياي المضطربة وليس كالدموع من نصير .

في حلقة أطفال الأزقة غرست أول بذور المعرفة ، وحين صحوت بعد عشرة أعوام وجدت نفسي أبدأ من جديد لعبة البحث عن المعرفة .

آه يا حبيبتي ما أشد توقي إليك فراراً من همومي وأفكاري القلقة ، لأرتاح من هذا الوجع الطافح في منافذ الضوء ، وتسألني نفسي : ومن أنت ؟

ـ مغامر ركب السحب وجاب الأحلام هارباً من نفسه دون أن يدري أن زمن الوصول هو زمن الاستحالة .

☆ ☆ ☆

أنقاض متناثرة تعشش في أركانها المخلوقات المرعبة والأحاسيس مجبولة بالفجيعة ، من البعد نصوغ ملحمة الوجد ، سنوات من الأحلام المترعرعة في زمن الحاجة واليتم ، ويغدو الاطمئنان بعد سنوات الأحلام هذه مستحيلاً كالسفر إلى الزهرة على ظهر حصان .

غفت الأماني والآمال ، وحام الحرمان يجوب الأنحاء في الأرض الملطخة بالعار ، واليتم يفرض حصاره .

أستجدي اللحظة الحلوة فيفجعني الواقع بتناقضاته ، والزمن

أحمق الخطا بضربة منه يبعد مصدر الحب ويقرب التناقضات الشوهاء .

عجت على المرابع أعيد زمن الصبا في ترنيمة عشق ، والعينان محمرتان قرحهما الدمع ، وتغيب الشمس الكئيبة ، وصاحبي يراقبني عن بعد في محطته الفضائية الخارقة ، مشفقاً على صمتي ومتأثراً بفجيعتي ، وأنزوي بين هيكل متداعٍ دمرته قذيفة خرساء ، محاولاً الهرب من نفسي ، وقد وصلت تعاستي إلى الذروة وإلى درجة أماتتني وأنا حي ، أدخل الكهف الخرب ، أسند ظهري إلى الأنقاض ، فيهجم علي النوم يريحني من هذا القهر .

الليل داكن السواد تتصدره نجوم كابية الضوء ، وحوش كثيرة تزمجر من حولي ولا أراها ، تشاركها الذئاب المعولة التي تزيد الجو قُتْمة ورعباً .

يبرز من بين السواد طيف شديد البياض ، يلوح بيد نحيلةٍ قرب خطوط متوازنةٍ لقطارات سريعة ذهبت ولم ترجع .

أقترب مشدوداً راغباً في التخلص من وحشة الليل ، فتاة في عمر الورد تتكلم بغمغمة خافتة .

ـ خفت ألا تأتي .

ـ ومن أنت ؟

ـ ألا تعرفني ؟ اقترب قليلاً أنا الحبيبة المنسية التي ظلت أعواماً تسبح في مخيلتك وهي بعيدة عنك .

ـ مستحيل أعلموني أنها ماتت .

ـ بل لم أمت ، والدليل هاأنذا أمامك بشحمي ولحمي ، الضياء يغمر الوجه العذب هي ذاتها ، ياالقلبي المرتعش من الدهشة ، نوبة العشق تزيد من تسارع نبضاته ، أُمسك بيدها الغضة ، نسير معاً فوق القضبان المتصالبة .

ـ وكيف حضرت إلى هنا .

ـ أنا أتبعك منذ وقت طويل .

ـ وأين مسكننا ؟ كم أنا متشوق لرؤيته .

اللغة تندغم في الفم ، تتحول إلى اتقاد في العيون ، يشتد وميض الضوء القادم من الأفق الشرقي ، ويبرز القمر وهو يرسل أشعته الصفراء فوق المروج المحترقة ، ويغيم الأسى وتسقط أمطاره فوق قلبينا ، ونحن نتناجى ، ونسير معاً ، وينتصب فجأة هيكل بيت مقوض الأركان ، تحف به الجذوع المحترقة ، تمتد يدي بلهفة إلى مصباح الجيب أحاول به شق الظلام ، لأتبين قليلاً ملامح بيتي القديم في هذه الأنقاض المتراكمة ، أطلب منها الدخول إلى محراب حبنا القديم ... تهمهم .

- إنه مأوى للوحوش في الليل ربما يتكشّف عن حشرة سامة أو أفعى راكنة إليه ، جئنا ونحن نتناجى .

- الضوء يطرد الأذى ، سنشعل بعض الأوراق والأغصان نستضيء بها بعيداً عن الأعين .

- وإن ولج إلينا تائهٌ في هذا الليل يفتش عن بصيص نور يدفئ قلبه .

- سيكون الضوء محصوراً بمنطقة رقادنا .

بدأت على نور المصباح الضعيف أتامل محراب حبنا القديم ، لعلي أعرف شيئاً يعيد لي صلتي بالماضي ، وذكرياته الطافحة بالحنان .

- أأنت مشتاق إلى هذا الحد ؟

- آه يا حبيبتي ، وأين طفلتنا الصغيرة الحبيبة ؟

- تركتها هناك عند أمي هاجعة في حضنها .

- كم أنا مشتاق إليها ؟.

- نحن ننتظرك منذ زمن بعيد .

- ما بالك ترتجفين ، الجو ليس بارداً ؟

- لا أصدق نفسي .

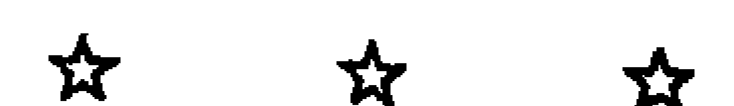
- آه يا حبيبتي الغالية .

أعثر على غصن جاف ، أشعله وأبدأ على نوره الوهاج أتبين ملامح طريقي بين الأنقاض من كان يصدق ؟ كل فترة الغياب هذه وأنا في رحاب الفضاء البعيد أغزل من أحلامي قصصاً ، أتعزى بها عن رؤيتها ، وها هي ذي تتجسد أمامي ، يا لحظّي الذي خانني في كل المرات إلا هذه . أدخل إلى أنقاض غرفة نومنا ، يندفع في وجهي حيوان بحجم الكلب ، أتراجع قليلاً وأنا أصنع من نفسي متراساً أحميها من الخطر ، أعاود الكرة وفي عيني صلابة نادرة : للحب يخشع القلب ، والأماني بالوصال في نمو عجيب .

☆ ☆ ☆

على شاطئ البحر تمتد الرمال الذهبية وتنتشر الأحلام كأنها عبق الزهر ، والأمواج تنكسر على الصخور القريبة ، وترتد في صوت أشبه بهدير نهر يجري في وادٍ ضيق ، نلعب معاً ، نثب نصرخ ، نتراشق بالماء ، والسعادة تطفر من العيون .

وكنت غنوة الصباح وعذوبة المساء في ليلة قمرية ، تنثرين الندى على الزهر ، وتزرعين ابتساماتك في صدري لتورق ألقاً وسعادة .



الغصن الجـاف يرسـل نـوره بعـد أن ركَـزْتـهُ بين قطعتين من الحجارة الضخمـة المتجمعـة ، وبـدأت أمهـد الأرض بيـدي ، وتمـددت مسنـداً رأسي إلى قطعـة من الحجـارة المتفحمـة ، وقـد تمـددت بقربي والنور ينبعث خافتاً من الغصن الجـاف ، والعيون تتعـانق بحب وقـد غمرتُ وجههـا بنظراتي الحـانيـة ، ضمخت أنفي بعبير شعرهـا الـذي يذكرني برائحة الياسمين .

أحس أنني أحلق في سماء صافية بديعـة بين طيور بيضـاء ، تخفق بأجنحتها متناغمة مع خفقات قلبي ، المـدى الأزرق يغمرني ، تعوم في بحار وجدي وشوقي العارم الـذي كبتـه أيـامـاً طويلـة قـاسيـة مليئـة بالضّنا والعذاب .

تعود الأنغام التي رغمت أسماعي بوقعها الرتيب قبل أزمنـة موغلـة في القدم ، حين كنا في ذروة سعادتنا تطوف المناطق الخضراء المحيطـة بالمدينة ونحن نغزل من عشقنا سمفونيات نسطرها في الـذاكرة ، لتظل خـالـدة في ذهن كل منـا مـادام قلبـه ينبض بـالحيـاة . على الأرض يزرعون الشـوك في درب العشـاق ، والـدمـاء تبلـل الأقـدام الطريـة المثقوبة الجلد .

يقترب منا ، ونحن في قمة سعادتنـا ، وحش كالح السواد ، تظهر أنيابه البيضاء الحادة ، يرفع مخالبه متهيئاً للضربـة الفـاصلـة ، فيعشي

النور المنبعث من مصباح الجيب عينيه ، أنتبه حولي فأرى الغصن الجاف قد احترق من آخره .

الوحش يبتعد مزمجراً ، والحب غمرت عذوبته العالم ، ناسك متعبد في صومعة منعزلة ، في كوكب بعيد خالٍ من البشر ، تشدني إلى السماء المدلهمة السوداء نجوم ملونة تحيط بها كواكب تعكس الوهج .

هدير آخر يقترب منا ، والآذان المخزونة بأحلى عبارات الحب تتقبل الصوت المرعب بفتور ، وأمد يدي ببطء إلى مصباح الجيب .

☆ ☆ ☆

آه من رأسي المتعب ، استيقظت من حلمي ، وإذا بي أتمدد بين أنقاض منزل مهدم ، قفزت أفتش عن الحبيبة التي زارتني فلم أجد شيئاً تمزق قلبي من الأسى ، تذكرت أن بحثي عن أهلي لم يسفر عن شيء ، كل الدلائل تشير إلى أن زوجتي وابنتي قتلتهما الحرب ، وأين أنا ؟ أين أقف الآن ؟ لا أبصر موطئ رجلي ، تحين مني التفاتة وأنا بين الأنقاض وعيناي تجولان في الأركان باحثة عن شيء لا أدري كنهه ، ألمح طرف صورة جدارية محترقة ، أقترب منها أحاول استعادة شكل صاحبها ويا لقدري المرعب .

هل أنا فوق أنقاض منزلنا ، وهل حلمت بزوجتي ، وأنا أتمدد على أنقاض غرفة نومنا ؟ تبينت الإطار المحترق ، وتأكدت أن الصورة لي ، فبدأت ذاكرتي تعود إلى الماضي .

أغوص في عالم آخر ، شعب مرجانية لها غصون متفرقة تطاردني ، وأنا في الأعماق ، أتحرك ببطء حركتي وانية ، وهي تقترب مني تحاول أن تمتص مني قوتي ، أسقط منحدراً نحو الأعماق الضحلة ، عاجزاً عن المقاومة تطاردني أرجلها الأخطبوطية الطويلة ، تصلني تلتف حولي ، تمزق جسدي الخالي من الدم أتألم بشكل لا يطاق ، أعصابي لم تعد تتحمل ، أصبح جثة ميتة .

☆ ☆ ☆

أيها المدى الواسع العظيم ، خذني إليك وضمني في اتساعك ، علني أنسى قليلاً هذا الإحساس بالتعاسة التي تسحقني ، تستل مني عقلي ، وأنا ألوب بين الحجارة أناغيها ، أقبلها ، أسألها عن زوجتي وابنتي ، وهي قاسية صامتة ، دموعي تتدفق سيلاً يملأ الدنيا بحاراً تجف وتمتلئ في حركة سريعة .

أعانق الفراغ حجراً صلباً ، يشجني ويزيد من تدفق جراحي النازفة ، ورفيقي يختلج بحزن ، ربما لأول مرة في عمره المديد ، وهو يرمقني مهتاجاً ضائعاً كسيراً .

آه أيها الغروب ، كم أخاف الوحشة والظلمة ، وكم أعشق الضياء والنور يبهرني ويعشو عيني ، كم تعذبني أيها الوجه العذب ، ألقيت ظلالك الدافئة على أيامي الطويلة ، سعادة عشت فيها بكل كياني ، أناغي صاحبتك ، ألجأ إلى صدرها إن ازدادت متاعبي ، أتخيل فيها كل سعادتي وآمالي المقبلة ، أشعر بالشيخوخة الآن ، وأنا في أوج شبابي ، تحطمني متاعبي ، السنون المليئة عذاباً وقهراً تستل مني اللحظات التي اختلستها مع الحلم ، هل أقترب من النهاية التي تبدو لي قاتمة .

صوت رفيق رحلتي الهادئ يصل إلى سمعي ، فأنشدُّ إليه كالمخدر ، كالمجذوب بقوة نحو منوم مغناطيسي .

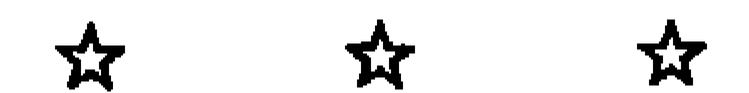
ـ لنرحل يا صديقي ، يكفيك مالقيته من تعاسة ، ابتعد عن هذا الكوكب البائس ، فلست تملك فيه شيئاً ، هذا الكوكب الذي لم يتمكن سكانه من السيطرة عليه ، وتركوا الزمام لطغمة باغية تتلهى بالقتل والتدمير .

قسرت عقلي على التحرر من جاذبيته ونطقت بكلمات شقت الفضاء بصرخات عالية ، وأنا أبصر زهرة نائية بين الأنقاض منطلقة نحو الشمس غير مبالية بالموت حولها .

ـ سأبقى هنا ، هنا ولدت ، وهنا ستكون نهايتي .

حدق بي بهدوء ونظر إلى الزهرة المتحدية ثم شدّ على يدي بصمت قبل أن يختفي والمحطة متلاشياً بسرعة البرق .

اقتربت من الزهرة ، فإذا بي أبصر حولها براعم صغيرة لمّـا تتفتح ، أزالت عن نفسي بعض الإحساس التعيسُ الذي يهدني ، فنهضت محركاً ظهري المتيبس ، وأنا أحدق في الأفق الذي بدأ يتلون بالشفق .



THE HARD TIME

By: Dr. Ṭālib ʿUmrān

سلسلة روايات شيِّقة بقلم كاتب الخيـال العلمي الـدكتـور طـالب عمران ، تـأخـذ القارئ إلى عوالم يمتزج فيها الواقع بالخيـال ، والعلم بـالسِّحر ، والمعقـول بـالـلامعقـول ، وذلـك لاستخـلاص فـوائـد علميـة وأدبيـة وتربـويـة . كل ذلـك عبر أحـداث مثيرة ، ولغة ممتعة ، وحبكة ذكيـة ، تـدفع القـارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب .

والمؤلّف ينطلق في بناء رواياته العلميـة الخيالية على أسس واقعية ، وظواهر مدهشة في حياتنا ، فيجعلها مادة قيِّمة تعود بالنفع والمتعة على القارئ .

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A.
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-645-2
